

تقديم ريتشارد دوكنز



لماذا نؤمن بالله

دليل موجز لعلم الإيمان

جاي. أندرسون طومسون



لماذا نؤمن بالله

دليل موجز لعلم الإيمان

تأليف

جاي. أندرسون طومسون

ترجمة

حبيب زريق

حازم موسى

ميرا جندي

رزان حميدة

عبد المعين السباعي

زينب أحمد

حسام شibli

مراجعة

أحمد رضا

قائمة المحتويات

1.....	تقديم ريتشارد دوكنز.....
6.....	مقدمة.....
14.....	الفصل الأول.....
21.....	الفصل الثاني.....
31.....	الفصل الثالث.....
40.....	الفصل الرابع.....
44.....	الفصل الخامس.....
53.....	الفصل السادس.....
63.....	الفصل السابع.....
71.....	الفصل الثامن.....
94.....	الفصل التاسع.....
102.....	الفصل العاشر.....

تقديم ريتشارد دوكتز

في اقتصارٍ من أهم اقتصارات التاريخ، اقتصر كتاب أصل الأنواع نقاش التطور الإنساني وحده في نبوءة مقتضبة: «سيُلقي الضوء على أصل الإنسان وتاريخه». وقلما تذكر بداية الفقرة التي تحوي هذه الجملة: «في المستقبل البعيد أرى آفاقاً مفتوحة لأبحاث أهم بكثير. سيبيني علم النفس على أساس جديد». الدكتور طومسون واحد من علماء النفس التطوريين الذين يحققون نبوءة داروين، وهذا الكتاب بحث في الدوافع التطورية الدينية التي تمتزج بها الإنسان القديم.

فهم داروين –الذي لم يكن متدينًا إبان نضجه– الدافع الديني. كان الرجل من المتربيين لكنيسة داون، ولطالما وصل أسرته إليها في أيام الأحد (وكان يتركهم يدخلون ليكمل مشيه). وكان قد تدرّب على حياة رجل الدين، وكان كتاب ويليام بيلي *اللاهوت الطبيعي* كتابه المفضل قبل تخرّجه. أمات داروين إجابة اللاهوت الطبيعي، ولكنه ظلّ مشغولاً بسؤال اللاهوت الطبيعي: سؤال الوظيفة. لا جرم أن مسألة وظيفة الدين كانت مما يفتن داروين. لم يعتقد معظم الناس، ومعظم الشعوب، معتقدات دينية؟ والسؤال هنا بمعنى الوظيفة الخاصة، التي نسمّيها اليوم «داروينية»، وإن لم يسمها داروين.

والأصوغ السؤال الدارويني بعبارة حديثة: كيف يسهم الدين في بقاء الجينات التي تتباين؟ يعتبر طومسون من أهم مناصري مدرسة «الأثر الجانبي»:

ليس للدين في نفسه قيمة للبقاء، بل هو أثر جانبي للنزعات النفسية التي لها قيمة للبقاء.

«الوجبات السريعة» هي الفكرة المهيمنة على الكتاب: «إذا فهمت علم نفس الوجبات السريعة، فهمت علم نفس الدين». السكر مثال صالح آخر. كان يستحيل على أسلافنا البريّين أن يحصلوا على ما يكفيهم منه، لذا ورثونا رغبة لا تنتهي به، تضرّ صحتنا الآن إذ أمكن إشباعها.

هذه الرغبة بالوجبات السريعة أثر جانبي. أصبح الآن خطراً، لأنه إذا خرج عن السيطرة أدى إلى مشكلات صحية لم يواجهها أسلافنا على الراجح. وهو ما يقودنا إلى الدين.

يفسّر عالم النفس البارز ستيفن بينكر حبّنا للموسيقا بطريقه مشابهة، إذ يصف الموسيقا بأنها «حلوى سمعية فخمة مصنوعة لتدغدغ النقاط الحساسة لست على الأقل من قدراتنا الذهنية». يرى بینکر أن إثارة الموسيقا لهذه القدرات الذهنية أثر جانبي للبرنامج الدماغي المعقد المطلوب لفك الأصوات ذات المعنى (كاللغة مثلاً) من الضجة في الخلفية. تؤكد نظرية الوجبات السريعة في تفسير الدين، التي يقول بها طومسون، على النزعات النفسية التي يمكن وصفها بوصف الاجتماعية: «الآليات النفسية المتكيفة التي تطورت لتساعدنا على مناقشة علاقتنا مع الناس، ولللحظة الفاعلية والنية، ولتوليد إحساس بالأمان. لقد تكونت هذه الآليات في العالم الإفريقي الذي كان موطننا قبل زمن غير بعيد».

تحدد فصول طومسون سلسلة من الملوك الذهنية المتطورة التي يستغلها الدين، ويسمّي كل فصل بجملة معروفة من النص المقدس أو كتب الصلوات والشعائر: «خُبزنا اليومي»، «خلصنا من الشرير»، «لتكن مشيئتك»، «لكيلا تدانوا». بعض الصور هنا مقنعة:

فَكَرْ في طفل ابن عامين، يريد أن يُحمل ويعانق. يمد الطفل يديه فوق رأسه وينشدك. فَكَرْ الآن في العابد البروتستانتي الخمسيني الذي يتكلم بالألسنة واللغات. يمد العابد يديه فوق رأسه، وينشد الله بطريقة «احملني وعانيقي» نفسها. قد نخسر أناساً تعليقاً بهم بالموت أو سوء الفهم أو البعد، ولكن الإله دائمًا موجود وحاضر.

يرى معظمنا أن مد العابد ليديه حركة غبية. بعد قراءة طومسون سنراها بعيون أثقب: إنها ليست غبية فقط، إنها طفالية.

ثم عندنا رغبتنا للاحظة الفاعلية والفعل المتقن في كل شيء.
لم نظن الظل سارقاً ولا نظن السارق ظلاً؟ إذا سمعت إغلاق باب، لم تسأل منأغلقه قبل أن تفكّر في احتمال إغلاق الريح له؟ لم يخاف الطفل من فروع الشجرة المثمرة الظاهرة من الشبّاك أن تكون وحشاً أتى ليأخذه؟

إن جهاز ملاحظة الفاعلية النشيط في أدمنتنا تطور عند أسلافنا البريin بسبب اختلاف الخطر. الأرجح أن تكون الخشخة في الأعشاب الطويلة من الريح لا من فهد مفترس. ولكن تكلفة الخطأ في الاحتمال الثاني أكبر بكثير من تكلفته في الاحتمال الأول. الفاعلون، كالفهود والسارقين، يقتلون. الأفضل أن

نفضل التخمين الأقل احتمالاً. (ذكر داروين الحجة نفسها، في حكاية ذكرها عن استجابة كلبه لظلة سارت بها الريح). يستمر طومسون في الفكرة - فرط الإحساس بالفاعلين في حين غيابهم - ويهمنا تفسيره الرائع لأنحياز نفسي آخر تأسس عليه التدين.

إن اهتمامنا الدارويني بالقرابة انحياز آخر. فعلى سبيل المثال، في أدبيات الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، تسمى الراهبات «أخوات»، أو حتى «أمّات»، ويسمى الكهنة «آباء» والرهبان «إخوانًا»، والبابا «أباً مقدّساً»، والدين نفسه يسمى «الكنيسة الأم المقدسة».

درس د. طومسون العمليات التفجيرية الانتحارية دراسة خاصة، ولاحظ استغلال نزعات القرابة النفسية فيها، في التجنيد والتدريب: ينشئ المجندون والمدربون الحماسيون خلايا من قرابة خيالية، تحوي إخوة زائفين تغضبهم الإساءة الموجهة لإخوانهم وأخواتهم من المسلمين الذين لا تربطهم بهم قرابة حقيقة. إن إغراء هذا النوع من الشهادة لا يقتصر على الخيال الجنسي والحلم بعذرارات السماء، بل ويشمل فرصة إعطاء الأقرباء تذكرة مختومة إلى الجنة.

يعالج طومسون مكونات الدين واحداً واحداً، من العبادة الجماعية إلى طاعة السلطة الكنوتية، إلى الطقوس. وفي كل حجة يصوغها طابع من الحقيقة، يرافقه أسلوب سلس وصور حية. آندي طومسون محاضر مقنع بارز،

وهو ما يظهر في كتابته. سُيُقرأ هذا الكتاب القصير القوي بسرعة-ليطول مقامه في الذاكرة بعد ذلك.

مقدمة

هذا الكتاب صدىً لأحداث 11 سبتمبر. كان ابني ماثيو يتدرّب من أجل عمل جديد في مبنى مجاور لمركز التجارة العالمي، وقد شهد الكابوس مباشرةً. وإنني أرد على نجاته من الموت الوشيك بدراسة الإرهاب الانتحاري.

ليس الدمار البشري بغرير على. فمهنتي كطبيب نفسي شرعي تتيح لي اتصالاً عميقاً مع الأشخاص العنيفين. ولسنوات عديدة كنت جزءاً من مركز دراسة العقل والتفاعل البشري في جامعة فيرجينيا، وهو مجموعة فريدة متعددة التخصصات من الخبراء في مجال الصحة العقلية والدبلوماسيين والمؤرخين أسسها الطبيب النفسي فاميلا فولكان الذي سافر إلى مناطق ساخنة في جميع أنحاء العالم لدراسة الصراع المحتدم والتتوسط فيه.

وعلى الرغم من عملي المهني وخبرتي مع المجتمعات المعرضة لصدمات، اكتشفت في أثناء دراستي للإرهاب الانتحاري عالمًا جديداً إلى حد كبير ومستمراً في الاتساع من الأفكار والأدلة حول العقل البشري، تحديداً من حيث علاقته بالدين. كانت الكتب والمقالات التي استخدمتها أكاديمية، وبعضها يسهل الوصول إليه أكثر من البعض الآخر. لقد اكتشفت أنه ما من مصدر واحد طرح هذه الأفكار الجديدة والمثيرة بطريقة يسهل على القارئ المهم الوصول إليها. وذلك ما حاولت فعله هنا.

لم يكن الدين مفهوماً جدًا بالنسبة إلي. لكنني كنت كمعظم الأبناء المطيعين أجاري الأكبر مني سنًا في معتقداتهم. فإذا بدا الأمر مناسباً للأشخاص الذين أعجبت بهم وأحترمهم والذين خاضوا غمار العالم والحياة، إذن من

الأفضل أن أنضم إلى الموكب. ومع أنني أجهرت بإيماني، أضمرت اقترناعاً عاطفياً ضئيلاً بتلك المعتقدات. وفر الغناء في الجوقة مع رفاقي وقتاً ممتعاً مع الأصدقاء في أمسيات الأربعاء وأصبوحات الأحد. ومع أن التراتيل المشيخية التي استخدمناها بدت أشبه بمجموعة من المراثي الجنائزية، يمكن أن تكون الموسيقى الدينية الجيدة مذهلة. فأوراتوريو المسيح لهاندل تؤثر فيني حتى هذا اليوم.

وقد أطلعني تدربى كطبيب نفسي موجه نحو التحليل النفسي على مستقبل الوهم لسيغموند فرويد الذي ساهم بلا شك في فهمنا سبب توليد العقول البشرية للمعتقدات الدينية. ومع ذلك، لم ينطو كتابه على تفسير كامل.

كوني تبحرت مسبقاً في الفرع الجديد لعلم النفس التطورى، وجدت تجليات خلال بحثي حول الإرهاب الانتحارى في أعمال باحثين من أمثال سكوت أتران، وجيسى بيرينغ، وباسكار بوير، وستيوارت غوثري، وريتشارد سوسىس، ولی كيركباتريك. لقد فهموا الدين - أو كانوا على وشك فهمه. وأفادت أعمالهم تحليلي ثلاثي المحاور للمفجرين الانتحاريين.

تنص الصيغة الأساسية للإرهاب الانتحارى المدعومة بالأدلة على ما يلى: يعد العنف الائتلافى المرتبط بالذكور، مع الغارات المميتة على الأبرىاء، قدماً قدم جنسنا البشري، بل حتى أقدم منه. وتلك القدرة مضمونة في جميع الذكور. تكمن احتمالية الانتحار فيما جمياً، ذكوراً وإناثاً. وتشير الأدلة إلى نوعين من احتمالات الانتحار المتطرفة: الصلاحية الشاملة السلبية والمساوية الانتقامية. ينشأ الأول من الشعور بالإرهاق ويحفز المفجرين الانتحاريات، مثل الأرامل أو المنبوذات. أما الثاني فيميز المفجرين الانتحاريين الذكور وينشأ في حالات الذل

والضعف. ولأن الدين بناء ثقافي، ونتاج العقول البشرية، فإن العديد من التكيفات المعرفية المتطورة التي تولد المعتقدات الدينية يمكن استغلالها لتحفيز الإرهاب الانتحاري. هذا يجعل الدين أيديولوجية قوية بشكل مذهل يمكنها في الوقت نفسه الاستحواذ على القدرات المتطورة لصالح كل من الغارات المميتة والانتحار. كل الأجزاء تتناسب مع بعضها.

ساهم نشر ذلك التحليل الذي كان بمساعدة كلير أوكونفر، بالإضافة إلى العروض التقديمية لصيغة الإرهاب الانتحاري التي وضعتها، في إبقاء تركيز على الدين. وقد نُمِّت ردود المراجعين والجمهور أفكارياً.

بحلول أوائل عام 2009، جمعت بحثي وطورت عرضاً تقديمياً مدمجاً مدة ساعة واحدة لشرح سبب إيماناً بالآلهة. بفضل ريتشارد دوكنز ومؤسساته، مؤسسة ريتشارد دوكنز للعقل والعلم، صُور العرض التقديمي بجودة عالية وحُرر ونشر على يوتيوب حيث حصد مئات الآلاف من المشاهدات في فترة زمنية وجيزة. وقد كشف لي ذلك المستوى من الاهتمام أنه قد يكون هناك اهتمام واسع النطاق بدليل موجز واضح ودقيق إلى العلم الجديد للدين، وبذلك كانت نشأة هذا الكتاب.

أضفت كلير أوكونفر سحرها على نثري، وقدمت إضافات وأمثلة قيمة لأفكار عديدة، وكانت صاحبة الفكرة المهمة في استخدام صورة ناسا المذهلة لسديم هيليكس، المسمى عين الله، التي الثُقطَت جزئياً باستخدام مرصد هابل. ليت جميع المؤلفين ينعمون بمثل هذه الزميلة.

يتمثل هدفي في جعل القارئ ملماً بأخر المستجدات بسرعة. ففي غضون الوقت الوجيز الذي تتطلب قراءة هذا الكتاب القصير، ينبغي أن تكون قادراً على

فهم كيفية عمل العقل والدماغ لتوليد المعتقد الديني وترسيخه. (وإذا كان لديك أسئلة، فأنا أرحب برسائلك).

أنه قراءة الكتاب. ارجع إليه في كثير من الأحيان. هبه لصديق. تبرع به مكتبة أو مدرسة. نحن نعرف الآن لماذا وكيف تصنع عقولنا المعتقدات بالآلهة وتنشرها، ويستمر البحث الجديد في إضافة المزيد إلى ما نعرفه. يمكن لهذه المعرفة أن تحررنا. فإن أي شيء -مهما كان بسيطًا- نستطيع فعله لتخفييف قبضة الدين الأصولية على الإنسانية يوجه ضربة لصالح الحضارة ويعزز الفرص لقيام مجتمع مدني عالمي بحق - وربما حتى لبقاء نوعنا على المدى الطويل. وإذا كنت متدينًا، ووقع هذا الكتاب بين يديك، فربما حصل ذلك لسبب. لذا تابع القراءة.

شكر وتقدير

يستحق ريتشارد دوكنز شكرًا خاصًا على تمهيده الطيب لهذا الكتاب، وعمله، وإتاحة الفرصة لي لأكون وكيلًا مع مؤسسة ريتشارد دوكنز للعقل والعلم. لقد كانت معرفته والعمل مع مؤسسته امتيازًا لا يضاهى. يخصص جزء من عائدات بيع هذا الكتاب للمؤسسة. إذا اشتريت هذا الكتاب، فقد قدمت تبرعًا للمؤسسة. لك جزيل الشكر.

سأكون دائمًا في غاية الامتنان لروبن إليزابيث كورنويل، وهي المديرة التنفيذية لمؤسسة ريتشارد دوكنز للعقل والعلم. لقد كانت صديقة وزميلة رائعة

في هذا العمل. فقد قدمت نسخاً أولية من هذا الكتاب وتمحیصاً دقيقاً ومساعدة، وأتاحت لي فرصةً لا مثيل لها لعرض أفكاري على الجمهور في كل أنحاء البلاد.

وقد راجع زميلي الوكيلان في المؤسسة، هما غريغ لانجر وتود ستيفل، النسخ الأولى من المخطوطة وكانا داعميين كبيرين لهذه المحاولة.

ويستحق ناشرنا كيرت فولكان عظيم الثناء على حماسه منذ اللحظات الأولى لتعاوننا وتحريره الحكيم وتوجيهه طوال العملية.

لقد مهد ويليام سبوليدينغ طريقه إلى علم النفس التطوري بإهداه كتاب *الحيوان الأخلاقي* لروبرت رايت. وقدم ابنه تريستان نقداً قيماً للمسودة الأولى من الكتاب.

يبرز سكوت أتران، وجاستن باريت، وجيسى بيرينغ، وبول بلوم، وباسكا بوير، وستيوارت غوثري، ولی کیرکباتریک، وریتشارد سوسمیس بین الباحثین الذين فهموا العمارة المعرفية للدين.

وقد ساهم كل من بول أندروز، ومارتن برون، وديفيد بوس، وجوكارول، ولیدا کوزمیدیس، ومارتن دالي، وروبون دونبار، وجوش دونتلي، وأن آیسن، وأوريلیو خوسيه فيغيريدو، وهیلین فیشر، وروس غاردنر، وإدوارد هاغن، وسارة هیردی، وأوین جونز، وروب کورزبان، وجیفری میلر، وراندی نیس، وکریغ بالمر، وستیفن بینکر، وجون ریتشر، ونانسی سیغال، وتود شاکلفورد، وولف شیفینهوفیل، وفرانک سولوی، وراندی ثورنهیل، وجون توبی، وبول واتسون، وکارول وغلین ویسفلد، وأندرياں ویلکی، وجميع المشاركين في علم النفس التطوري وعلم السلوك البشري، في إغناء تفكيري إلى أبعد حد من خلال كتاباتهم ومحادثاتي معهم كل عام في الاجتماع السنوي لجمعية السلوك

البشري والتطور والمجتمعات نصف السنوية للجمعية الدولية لعلم السلوك البشري. وأفتقد ليندا ميلي، وجون بيرس، ومارغو ويلسون الذين رحبوا بحرارة بالغرّ ولم يعودوا معنا.

ومع أن زميلاً في جامعة فيرجينيا جوناثان هايدت سيختلف معي حول بعض الآراء الواردة في هذا الكتاب، إنني في غاية الامتنان له فقد وجه تفكيري في علم نفس الأخلاق.

قدم العديد من أصدقائي وزملائي من الأطباء النفسيين يد العون في المقالات أو من خلال تحدي تفكيري في الدين، ولا سيما سلمان أختر، وإيرا بريز، وبروس غريسون. لقد دعاني سلمان ومؤسسة مارغريت مالر للتقديم في ندوة مالر السنوية في فيلادلفيا وكان الفصل في الكتاب لتلك الصفحات المرة الأولى التي تُطبع فيها محاولتي لاصطناع نظرية المنتجات الثانوية للدين. منحي مرشدي فامييك فولكان فرصة للعمل في مركزه الفريد في جامعة فيرجينيا، وهو عمل أطلاعني على مجتمعات مصدومة ومنكوبة بالصراعات في جميع أنحاء العالم. وشارك أيضاً في تحرير كتاب عن الإرهاب تضمن مقالتي الأولى عن صيغتي للإرهاب الانتحاري.

نشر هاوز سبنسر، محرر صحيفة زا هوك في شارلوتسفيل بفيرجينيا، مقالتي عن الإرهاب الانتحاري لعامة الجمهور. وفي هذا الكتاب أيضاً المقالة التي نقتتها كلير أوكوفر وروزاليند وارفيلد براون، وأشارت جدلاً بسبب الأفكار حول الدين.

زودني جيم سيموندز بالكتب والمقالات المهمة. ويشكك مايلز تاونسند في كل شيء، شكرًا للآلهة. أما روس فيدرمان، وهو المؤلف الرئيسي لكتاب الذي

ألفته معه للشباب المصابين بمرض ثنائي القطب، فقد منحني الثقة لتأليف هذا الكتاب. وكتبت جون كليفلاند، سكرتيرة الطب الشرعي التي لا غنى لي عنها، المسودة الأولى لهذا الكتاب.

ويليام «بيل» أوبير، زميلاً في كلية الطب، رسام توضيحي استثنائي لكتب علم الأحياء والطب منذ أن عرفته. ستساعد رسوماته القارئ على رؤية كيفية نشوء الدين في أدمنغتون.

راجع ريتشارد بوتس، مدير برنامج أصول الإنسان في المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي التابع لمؤسسة سميثسونيان في واشنطن العاصمة، ملخص الكتاب عن تطور الإنسان. إذا لم تزر قاعة أصول الإنسان المذهلة في المتحف بعد، فعليك زيارتها قريباً.

تفضّل مايكل بيرسينجر بتدقيق ملخصي لعمله الرائع مع «خوذة الإله». قدمت أماندا ميتسكاس وأوغست برونزمان نقداً غنياً ومفيداً على المسودة النهاية.

وقد استمع الملحدون الأميركيون، والاتحاد الدولي للملحدين، والملحدون والأدريون في فيرجينيا، والملحدون في مدينة نيويورك، والملحدون المتحدون في لوس أنجلوس، ومستشفى الولاية الغربية في ستونتون بفيرجينيا، وتحالف الطلاب العلمانيين في جامعة جورج واشنطن، وجامعة جورج ماسون، وجامعة كارنيجي ميلون، إلى محادثات عن هذه المادة. لذا فإنني أقدر الفرصة وأسئلتهم واقتراحاتهم.

وتحتل آيان هيرسي علي والفرسان الأربعه -وهم ريتشارد دوكنز، ودانيل دينيت، وسام هاريس، وكريستوفر هيتشنز- مكانةً مميزةً في قلبي لكتاباتهم، ومناظراتهم مع المؤمنين، وشجاعتهم الفذة عندما لا يتهاونون مع الدين والمدافعين عنه.

لقد أُنجز هذا العمل بدافع الحب وحب العلم والإعجاب بالعلماء الذين يرسمون آليات صنع الدين في العقل. إذا جعلتُ أفكارهم منيرة لك، فاشكرهم. وإذا أخطأتُ، فصح لي أخطائي.

الفصل الأول

في البدء كان الكلمة

مilyana إلى الإيمان

ليس أقوى أفراد النوع هو الذي يبقى، ولا أكثرهم ذكاءً، بل أقدرهم على التكيف مع التغيرات.

ـ تشارلز داروين

ثمة من يقول إن التطور يتعارض مع الإيمان، أو إن عجائب التطور الطبيعية قد بدأها كائن حساس كلي العلم. ومع ذلك، إذا كان هناك إله قادر بصير موجود حقاً، فقد صمم في تكوين الإنسان وتطوره شيئاً عظيماً: هو الميل إلى الإيمان بـإله.

على مدار التاريخ المسجل، من المصريين القدماء إلى الأزتك والرومان وما بعدهم - المؤمنين بعده آلهة، والمسيحيين، واليهود، وال المسلمين، والهندوس، والبوذيين، والوثنيين، والشيطانيين، والسينتولوجيين - تمحورت جميع الثقافات المعروفة حول مفهوم عن إله واحد على الأقل و/أو شخصية روحانية مركزية، مع أو من دون عالم خارق مرتبط به. لماذا؟ لماذا يعد الدين سمة عالمية بخلاف يتصرف بها البشر والثقافات التي نخلقها؟

ها قد بدأنا نفهم. فعلى مدار العقدين المنصرمين، حدثت ثورة في علم النفس وعلوم الأعصاب المعرفية. انبعث منها تفسير تطوري لسبب توليد العقول

البشرية معتقدات دينية، وسبب توليدنا لأنواع معينة من المعتقدات، وسبب ميل عقولنا إلى قبولها ونشرها.

لدينا الآن نظريات راسخة بأدلة تجريبية، من ضمنها أدلة من دراسات التصوير -صور للدماغ ذاته- تدعم هذه التفسيرات. مع اكمال أجزاء الصورة، يمكننا الآن أن نعتمد على العلم في إيجاد فهم شامل لسبب إنتاج العقول البشرية الأفكار الدينية وقبولها، وسبب تغيير البشر سلوكهم وفقاً لها وموتهم في سبيلها وارتكابهم القتل من أجلها.

ما تزال نظرية تشارلز داروين عن الاصطفاء الطبيعي واحدة من أهم الأفكار التي خطرت على العقل البشري، وتثبت الأدلة أنه كان على حق. فالاصطفاء الطبيعي هو التفسير العلمي العملي الوحيد لتتنوع جميع أشكال الحياة وتصميمها -النبات والحيوان وكل شكل آخر- على هذه الأرض. إنه أيضاً التفسير العملي الوحيد لتصميم ووظيفة العقل البشري الذي يعد المنشأ الحقيقي للألهة.

انظر حولك. نحن جميعاً من نفس النوع، وهو *الإنسان العاقل Homo sapiens*. ومع ذلك، فقد جئنا بجميع الأشكال والأحجام وبقدرات متفاوتة. ورغم كل التنوع، إن العديد من السمات وراثية. نحن نميل إلى أن نشبه والدينا وأقاربنا، إذ نتشارك نقاط القوة والضعف مع أسلافنا الذين جاؤوا قبلنا. إننا جميعاً أحفاد النجاح.

غالباً ما يساء فهم مصطلح «البقاء للأصلح». بالمعنى الدارويني، الصلاحية هي القدرة على التكيف والبقاء والازدهار الإنجابي. والصراع من أجل البقاء يغربل الكائنات الحية التي تفتقر إلى تلك القدرة.

بالتأكيد، لم يكن داروين آنذاك يعرف بدقة كيفية انتقال الصفات من جيل إلى آخر. إذ لم تُكتشف الطريقة حتى عام 1953، حين فهم جيمس واتسون وفرانسيس كريك بنية الحمض النووي الريبيوزي منقوص الأكسجين (DNA)، وبذلك عرفا على الفور آلية النسخ الممكنة وحدّدا وسائل الوراثة.

خلق الجمع بين داروين وواتسون وكريك –أي الجمع بين الاصطفاء الطبيعي وعلم الوراثة– الاصطنان الدارويني الحديث. كي نبقى على قيد الحياة، نحن نتكيف على مدار الزمن التطوري، تماماً كما تكيفت مخلوقات جزر غالاباغوس مع بيئاتها الفريدة. فمع عدم وجود مكان آخر تعيش فيه الإغوانا في المحيط، كان التكيف الحل الواضح لمشكلة العثور على الطعام والنجاة في جزيرة صغيرة. وقد واجهت الكائنات في جزر غالاباغوس، التي لكل منها نظام بيئي معزول، مشاكل مختلفة قليلاً حلتها بطرق مختلفة. لقد تكيفت. وما هو أهم من ذلك أنها نقلت تلك التكيفات عبر الأجيال.

يعد كل كائن حي، من ضمنه الكائن البشري، مجموعةً متكاملةً من التكيفات –أجهزة لحل المشكلات– شكلها الاصطفاء الطبيعي على مدى فترات طويلة من الزمن التطوري. ويعزز كل تكيف بطريقة محددة نجاة الجينات التي وجهت بناء تلك التكيفات.

على جميع المستويات، من الجزيئات إلى العقول، نرى عمل الاصطفاء الطبيعي الدارويني.

انظر إلى نفسك. لتبقى على قيد الحياة، أنت تحتاج إلى الأكسجين. بصفتك كائناً حياً متطوراً، لقد كنت بحاجة إلى تطوير طريقة لاستخلاص الأكسجين بكفاءة من الهواء وتوزيعه في جميع أنحاء جسمك.

تحل بنية قلب مشكلة البقاء المتجسدة في ضخ الدم. ويحل بروتين الهيموغلوبين مشكلة نقل الأكسجين إلى الدماغ والأعضاء الأخرى. يأتي الأكسجين الموجود في الهيموغلوبين الذي يضخه القلب من الرئتين اللتين تحلان مشكلة استخلاص الأكسجين من الهواء. وهكذا دواليك. إننا نسمى هذه العملية بأكملها «التنفس».

ينطبق هذا الاصطناع التطوري الحديث أيضاً على العقل البشري والدماغ البشري. الدماغ عضو، وكما يلاحظ عالم النفس والباحث في جامعة هارفارد ستيفن بينكر، إن العقل هو ما يفعله الدماغ. يعد الدماغ، ككل جزء آخر من النسيج الحي، مجموعةً متكاملةً ب أناقة من الأجهزة المصممة من خلال الاصطفاء الطبيعي لحل مشكلات محددة تتعلق بالبقاء على مدى فترات طويلة من الزمن التطوري. وقد تطورت هذه التكيفات، من ضمنها التكيفات الاجتماعية التي ساعدتنا على البقاء في مجموعات صغيرة، في الدماغ لتعزيز استمرار الجينات التي وجهت بناءها.

عندما تنظر إلى وجه، تكون الصورة على شبكة عينك مقلوبة وثنائية الأبعاد. فيحول دماغك تلك الصورة إلى وجه صحيح ثلاثي الأبعاد باستخدام عدد من التكيفات البصرية: كاشفات الألوان، وكاشفات الحركة، وكاشفات الأشكال، وكاشفات الحواف – التي تعمل جميعها بشكل تكافلي وبصمت وبسلامة.

وقد طور أسلافنا عدداً كبيراً من التكيفات الاجتماعية المعقدة بنفس القدر. فعندما ترى ذلك الوجه، إنك تصدر أيضاً أحكاماً مجردة عن الجنس والعمر والجاذبية والمكانة والحالة العاطفية والشخصية ومحتويات العقل غير المرئي

لذلك الفرد، من ضمنها التوايا والمعتقدات والرغبات. هذه التكيفات التي تصدر الأحكام هي إلى حد كبير خارج نطاق الإدراك، والعديد منها لا ينبع إلى الأبد. فأحكامك السريعة في طور التكوين منذ ملايين السنين.

إن العقل/الدماغ معقد باستمرار. خذ بعين الاعتبار مركبة أبواب الفضائية، وهي مجموعة مليئة بالأجهزة الهندسية، كل منها مخصص لتحليل سيل متواصل من المعلومات وحل مشكلة معينة، في حين يدرك رواد الفضاء بوعي بعضًا مختاراً فقط. نحن نعمل بنفس الطريقة. فكر بكل الأشياء التي تدركها؛ إنها جزء صغير جدًا من نظام بأكمله، وغيره من فيوض ما يدور في ذهنك.

من المهم أن نفهم هذا لأن الدين، مع أنه ليس تكيفاً في حد ذاته، مستمد من نفس تكيفات العقل والدماغ الاجتماعية التي نستخدمها للتعامل مع الأشخاص الذين يحيطون بنا. وقد تشكلت هذه التكيفات لحل مشكلات اجتماعية وبين شخصية محددة خلال تطور البشرية. بشكل عرضي تقريبًا، ولكن دون أن يكون أقل تأثيراً، تجتمع معًا لبناء أساس كل فكرة دينية ومعتقد وطقوس. فالمعتقدات الدينية مفاهيم أساسية للبقاء الاجتماعي للإنسان مع تعديلات طفيفة.

كون الدين منتجًا ثانويًا للتكيفات التي حدثت لأسباب أخرى لا ينفي قوته المذهلة. كما سنوضح في الفصل التاسع القراءة والكتابة ليستا تكيفين في حد ذاتهما؛ وهما أيضًا منتجان ثانويان لتكيفات مصممة لأغراض أخرى.

تبعد جميع الأديان -باعتبارها مجموعات من المعتقدات المتعلقة بسبب الكون وطبيعته والغرض منه- بالإيمان بشخصية مقدسة محورية أو معلم واحد أو

أكثر. وينطوي معظمها أيضًا على إله أو آلهة قادرة على التفاعل معنا، وقدرة وراغبة في التدخل في حياتنا، وسماع أمانينا الخفية، وتحقيقها، وقدرة على فعل أي شيء حرفياً. من أجل غايتنا، سنناقش إلهًا واحدًا فقط، ونصنفه على أنه ذكر، مع أن بعض الأديان لديها عدة آلهة بقوى متفاوتة وقليل منها تسلل بشخصيات نسائية. ومع ذلك، جميعها متشابه بشكل ملحوظ. لا شك أن إله الديانات الإبراهيمية الثلاث هو نفسه، لذلك سنستخدم «ـهـ» في أمثلتنا.

وذلك الإله أبيي، فهو مثل الأب الصالح، يحبنا حبًا غير مشروط. مع أنه في العادة لا يستجيب لدعائنا إلا إذا أكثرنا من تعبدنا له، وقدمنا تضحيات من نوع ما، واعترفنا بعدم كمالنا وحمدناه حمدًا كثيرًا (سواء حقق أمانينا أم لم يحققها)، واعتقدنا أننا نولد جميـعاً سـيـئـين. ولا يتـخـذـ هذا الإله القرارات بناءً على دعواتنا فحسب وإنما دعوات كل إنسان آخر أيضًا، أو على الأقل كل إنسان يشارـكـناـ تـفـاصـيلـ مـعـتـقـدـاتـناـ. وـحتـىـ حينـ لاـ يـلـبـيـ أـمـانـيـناـ أوـ اـحـتـيـاجـاتـناـ، نـواـصـلـ الـاعـتـقـادـ بـأـنـ كـلـ مـاـ يـحـدـثـ يـصـبـ فـيـ مـصـلـحـتـناـ، وإنـ لمـ يـبـدـ الـأـمـرـ كـذـلـكـ، وأنـ هـذـاـ الإـلـهـ الـخـفـيـ لـهـ غـاـيـةـ وـرـاءـ كـلـ شـيـءـ. وكلـ هـذـاـ يـدـورـ فـيـ أـذـهـانـنـاـ حـتـىـ عـنـدـمـاـ لـاـ نـفـكـرـ فـيـهـ.

لو أن والدتك رتب لك موعداً مدبراً عندما كنت مراهقاً، وأكـدتـ لكـ أـنـ منـ ستـوـاعـدـهاـ باـهـرـةـ الجـمـالـ بشـكـلـ اـسـتـثـنـائـيـ، وـثـرـيـةـ فـوـقـ كـلـ المـقـايـيسـ، ولـطـيفـةـ، وـمـحـبـةـ، وـعـلـىـ اـسـتـعـدـادـ لـفـعـلـ أـيـ شـيـءـ مـنـ أـجـلـكـ مـعـ أـنـكـ لـمـ تـقـابـلـهاـ قـطـ، وـلـاـ تـرـغـبـ سـوـىـ فـيـ حـصـولـكـ عـلـىـ الـأـفـضـلـ مـنـ كـلـ شـيـءـ، فـهـلـ كـنـتـ سـتـصـدـقـهـاـ؟ـ حـسـنـاـ، رـبـماـ عـنـدـمـاـ كـنـتـ مـرـاهـقـاـ. لـبـضـعـ دـقـائقـ فـحـسـبـ.

فلـمـاـ نـحـنـ عـلـىـ اـسـتـعـدـادـ لـإـيمـانـ بـإـلـهـ خـفـيـ يـفـعـلـ كـلـ ذـلـكـ وـأـكـثـرـ؟ـ

بالمقارنة مع ما يدور حقاً في أذهاننا، يبدو مفهوم الكيان الخارق المقدس الواحد سهلاً. فلإيمان بإله، تنطلق عقولنا من ما لا يقل عن عشرين تكيفاً فطرياً تطور على مدى دهور من الاصطفاء الطبيعي لمساعدتنا على التعايش والتواصل مع إخواننا من نوع الإنسان العاقل للبقاء على قيد الحياة والسيطرة على الكوكب. في الصفحات التالية، سنوضح لك بالضبط كيف ولماذا تقبل العقول البشرية بالمستحيل، بل وتخلق أيضاً طوائف منه.

سنوضح لك كيف ولماذا أصبح البشر، من بين أمور أخرى، يؤمنون بإله، ويحبون إلهًا، ويخشون إلهًا، ويرضخون لإله، ويتصورون إلهًا مثلنا، ويصلون إلى إله، ويفترضون أن الدعاء سيُستجاب، ويبتكرون طقوساً لعبادة إله، وحتى يموتون ويقتلون من أجل إله. وسنوضح لك لماذا تجعل هذه السمات الاجتماعية الراسخة الابتعاد عن تلك المعتقدات في غاية الصعوبة، حتى عندما ترغب في ذلك.

لكن دعنا نبدأ بدورة مكثفة في التطور.

الفصل الثاني

حول الصورة والتشابه

التطور 101

أن يتخلص المرء من خطأ ما هو أمر جيد بقدر إثبات حقيقة جديدة أو حتى أفضل.

– تشارلز داروين

نحن قردة متطرورة، لا ملائكة منزلة – وبين أيدينا الآن دليل على ذلك. لربما يقف غرورنا في وجه تقبلنا للأمر، وأما أولئك الذين يؤمنون بالخلق الإلهي فيعتبرون المفهوم برمته شائئناً. إن الفكرة التي تقول باحتمالية تطور البشرية من الحيوانات «الدنيا» وحدها كفيلة في رفض العديد للتطور بشكل كلي، منذ اللحظة التي نشر فيها تشارلز داروين نظريته. ولكن الأدلة تثبت بشكل دامغ أننا تطورنا جنباً إلى جنب مع بقية الكائنات الحية الأخرى من الرسوبيات البدائية، التي شكلت بداية الحياة على الأرض.

على طول الجانب الشرقي من القارة الأفريقية، يمتد الوادي المتصدع الكبير من إثيوبيا إلى موزمبيق. تخيلوا هذا الوادي على أنه قناة الولادة التي أنجبت النوع البشري. إنه جنة عدن الحقيقة. هذا هو المكان الذي بدأ فيه نوعنا بالذات مساره التطوري الفريد.

نحن لم نتطور من القردة. فمن وجهة نظر علمية بحثة، إننا قردة. نحن نتشارك 98.6% في المائة من حمضنا النووي مع الشمبانزي. وكذلك نتشارك معهم أيضاً سلفاً مشتركاً عاش منذ نحو 5 إلى 7 ملايين سنة. ومن هذا السلف المشترك، تشعب الخط البشري وتطور على طول العديد من المسارات المختلفة، تماماً كما الفروع المتنوعة للشجيرة. وفي نهاية المطاف، انقرض الجميع باستثناء واحد، ذلك الذي تطورت عنه أنا وأنت.

إننا آخر الأمثلة الصامدة على أحد أنواع القردة الأفريقيّة: البشرانيات. منذ عهد قريب تطوريًا، أي قبل 50,000 سنة، من المحتمل أنه عاش معنا على كوكبنا أربعة أنواع من البشرانيات التي تربطها علاقة وثيقة على الرغم من اختلافها عن بعضها البعض. نحن وحدنا من نجا من بين أنواع البشرانيات.

والآن التقينا بالعديد من أسلافنا. نتملك حالياً في حوزتنا أحافير أردبيتيكوس، الذي لربما يعتبر واحداً من أقرب الأنواع إلى السلف البعيد الذي نتشاركه مع الشمبانزي. وعلى ما يبدو، جمع هذين النوعين ترابطاً زوجياً ومستويات متدنيةً من العدوانية.

إن أوسترالوبيثيكوس، أي القرد الجنوبي الأفريقي، يشتهر بأحفورته المسماة لوسي التي عثر عليها في إثيوبيا منذ نحو أربعين سنة. وأما أحافير بارأنثروبوس (الذي يعني أناسي نظير) التي عثر عليها في جنوب أفريقيا في عامي 1938 و1948 فثبتت أن دماغه يمثل تقريباً 40% في المائة من حجم

دماغنا؛ ومن المرجح أنه انقرض لأنه لم يتمكن من التكيف مع التغيرات البيئية والغذائية.

وفي عام 2008، اكتشف ابن أحد علماء الأحافير ذي التسع سنوات جمجمة طفل عمره تسع سنوات أيضًا، ولكن أكبر منه بكثير، في أفريقيا. قد تثبت لنا هذه الجمجمة، التي تعود أيضًا إلى البشرانيات بما أن نوعها يسمى أسترالوبيثيكس سيديبا، وجود روابط أخرى بين نوع أسترالوبيثيكس ونوعنا.

إن هذه الأنواع، جنباً إلى جنب مع أسلافنا الأوائل من البشرانيات، تعاملت سويةً في أفريقيا لحو 2 مليون سنة، ومن المثير للدهشة هو أنها بقيت على قيد الحياة لفترة أطول من تلك التي عاشناها نحن حتى الآن.

أما جنسنا البشري فظهر في السجل الأحفوري منذ نحو 2 مليون سنة، وهو يشمل هومو هابيليس (الإنسان الماهر) وهومو إيركتوس (الإنسان المنتصب) وهومو هايدلبيرغ (إنسان هايدلبيرغ). نجح الإنسان المنتصب في الخروج من أفريقيا، ودون لغة على الأرجح، منذ أكثر من مليون سنة، إذ هاجر حتى وصل إلى جبال القوقاز والصين وإندونيسيا.

وبحسب ما يبدو، تطور النياندرتال (الإنسان البدائي) عن بعض أعضاء نوع إنسان هايدلبيرغ بعد هجرتهم إلى أوروبا، إذ تشير أحدث بيانات تسلسل الحمض النووي الريبيوري منقوص الأكسجين إلى وجود تهجين بين أسلافنا من نوع هومو سابيان (الإنسان العاقل) والإنسان البدائي. وأما هؤلاء الأعضاء

من نوع إنسان هايدلبرغ، الذين بقوا في أفريقيا، فتطور عنهم في نهاية المطاف الإنسان العاقل الأول الحديث تشربيتاً.

إن عمر أقدم الأحافير المترعرف عليها للإنسان العاقل يقدر بنحو 200,000 سنة. ثمة دليل على القدرات الرمزية، مثل الأصياغ التي يعتقد أنها استخدمت في التلوين، فضلاً عن وجود دليل على التبادلات عبر المسافات الطويلة والمقاييس بين المجموعات، وهو أمر يتطلب عوامل معقدةً من التواصل الرمزي. من المرجح أن أقدم الأعضاء الذين نعرفهم في نوعنا امتلكوا أهم سمة معرفية واجتماعية وسلوكية مرتبطة بنا - القدرة على التواصل اللغوي. أنا وأنت، البشر العاقلون الحديثون الذين يمتلكون القدرة على التواصل اللغوي، بدأنا رحلتنا إلى خارج أفريقيا منذ 60,000 سنة، بين رمثة عين وعين من المنظور الزمني التطوري.

لنضع اختلافاتنا الإثنية والعرقية والقومية جانبًا. نحن جميعاً أفرقة في جوهرنا، أبناء وبنات مجموعات صغيرة من الصياديون وجامعي الثمار الذين تطوروا في أفريقيا ونجحوا في البقاء على قيد الحياة، وثم غزوا العالم.

والأكثر إثارةً للدهشة هو أن التباين الحاد في المناخ في الفترة ما بين قبل 70,000 و100,000 سنة تسبب في الحد من عدد السكان، فلم يبق على الأرجح سوى 600 فرد قادر على التكاثر. هذا ما يخبرنا به علم الوراثة الحديث الآن. وهذا معناه أن كل شخص من بين 7 مليارات إنسان على هذا الكوكب ينحدر من

تلك المجموعة الصغيرة من الصيادين وجامعي الثمار الذين عاشوا في أفريقيا ونجوا من التغير المناخي القاسي.

لم نحن؟ كيف نجينا ولماذا؟ إن المقارنة بين جمامجم أوستراالوبيثيكس والإنسان المنتصب والإنسان الحديث تثبت وجود تحول تدريجي في المنطقة التي تعلو العينين، إذ تفقد الجبهة انحدارها الحاد وتصبح مستديرةً، وأما الدماغ الذي يبلغ حجمه لدى أوستراالوبيثيكس بين 400 و500 سم مكعب فيتضاعف لدى الإنسان المنتصب ويزداد حجمه ثلاثة أضعاف تقريباً لدى الإنسان العاقل الحديث. إنه تغيير ملحوظ ولا سيما في مناطق الفص الجبهي، وهي مناطق في أدمنتنا تحتوي على الآليات المعقدة والتكيفات المتطرفة التي تمكنا من التعامل مع عوالمنا الاجتماعية.

إذاً، ما الذي تسبب في تطور أدمنتنا الكبيرة هذه؟ نحن المسؤولون عن ذلك، أو بشكل أدق، أفراد آخرون من نوعنا، إذ كنا مضطرين للعمل معاً من أجل البقاء على قيد الحياة. البقاء الجسدي اقتضى البقاء الاجتماعي؛ فطورنا «الميل إلى تشكيل الجماعات».

إن قسمتم غرفةً مليئةً بالأشخاص عشوائياً إلى مجموعتين من أجل لعبة ما، ستجدون أنهم دائمًا ما يتماهون مع المجموعة خاصتهم. سيعتبرون كل الأشخاص الموجودين في مجتمعاتهم «جزءاً من جماعتهم» وأولئك في المجموعة الأخرى «جزءاً من جماعة خارجة». ومن المحتمل أن تكون المنافسة قوية بين المجموعتين، حتى ولو كان الأشخاص في كلتي المجموعتين غرباءً عن بعضهم

البعض في بداية اللعبة. فالغرباء أصبحوا زملاءً في فريق واحد. ألم تشعروا بغرابة الأمر من قبل؟ ربما لا، لأنه أمر طبيعي تماماً، وعلى الأرجح أنكم ستفعلون الشيء ذاته. إن «الميل إلى تشكيل الجماعات» هذا متصل فينا، وهو ما ساعد أسلافنا في البقاء على قيد الحياة ضمن العوالم التي تطورا فيها.

إن انصهار مجموعات الأقارب الصغيرة والمت麝كة في بوتقة واحدة نحتنا في الشكل الذي نحن عليه اليوم. لم يحدث هذا في التاريخ السحيق. منذ خمسة ألف عام فقط، كان ثلثا سكان العالم ما يزالوا يعيشون ضمن قبائل صغيرة ويعتمدون على الصيد وجمع الثمار، وهي البيئة الاجتماعية التي شكلتنا وتكيفنا معها. على كثير من الأصعدة، نحن ما نزال قبليين تماماً في سيكولوجيتنا. ولكننا أيضاً ما نزال صغاراً جداً.

والآن ستتساءلون، ما علاقة هذا بالدين؟ إنهم على علاقة وثيقة للغاية. يستغل الدين وينتهز عمليات التفكير الاجتماعي اليومية والآليات النفسية التكيفية التي تطورت لمساعدتنا في التعامل مع علاقاتنا مع الأشخاص الآخرين ولاكتشاف الوكالة والنية ولخلق شعور بالأمان. صيغت هذه الآليات في عالم وطننا الأفريقي الذي ليس بعيد. وهي السبب في نجاتنا.

على الرغم من أنه ليس تكيفاً في حد ذاته، يمكن اعتبار المعتقد الديني بمثابة ناتج عرضي لتلك الآليات النفسية التي فسحت لنا المجال لتخيل أشخاص آخرين وعوالم اجتماعية أخرى، وهي قدرات ضرورية لبقاء الإنسان. ولأن الدين

قادر على تغيير هذه التكيفات حتى ولو بشكل طفيف، يمكنه أنه يكون مماثلاً لها في قوته.

دعونا نبحث آلية عمل النواتج العرضية التكيفية من منظور آخر: هل تحبون الوجبات السريعة – مثل برغر بالجبن كبير وطري، وإلى جانبه كمية كبيرة من البطاطس المقلية المقرومة وكولا مثلجة أو مخفوق الحليب؟ يحب معظم الناس نوعاً من أنواع الوجبات السريعة، بل ويستهونها في بعض الأحيان. إن لم تغريك الوجبات السريعة، فلربما تستهون أحياناً لحم ضلع طري أو آيس كريم. قد تتجنبونها لأسباب غذائية أو صحية، ولكنكم على الأرجح تستلمون أحياناً وتشترون مثل هذه الوجبات، حتى ولو يتواافق ذلك مع ما تؤمنون به.

ما المهم في ذلك، إن كنتم تفهمون سيكولوجية اشتاء الوجبات السريعة أو شريحة لذيدة من لحم الصلع أو مثلجات الشوكولاتة المترفة، ستتمكنون من فهم سيكولوجية الدين تماماً.

نحن تطورنا في بيئات قاسية وخطيرة. تطور لدينا اشتاء الأطعمة النادرة والضرورية لصحتنا الجسدية. ما من أحد يشتهي الكرنب المسوقة. كانت أنواع معينة من الخضراوات والدرونات مصدراً متاحاً للغذاء في العالم القديم. لكننا جميعاً نشتهي الدهون، وكلنا نتوق إلى تذوق الحلويات.

كانت لحوم الطرائد أول أنواع الدهون، إذ كانت مصدراً نفيساً للبروتينات والسعرات الحرارية المركزية. وأما الفواكه الناضجة فكانت أول أنواع الحلويات،

وهي مصدر مهم للسعرات الحرارية والمعادن وفيتامين سي. لم يكن الغذاء الوفير موجوداً، ولطالما كانت المجموعات قاب قوسين أو أدنى.

إن الاشتلاء في حد ذاته تكيف. وهو يحل مشكلة تأمين الأطعمة الأساسية ولكن النادرة واللازمة للبقاء. حين شعر أسلافنا بهذه الشهوات، بحثوا عن تلك الأطعمة، ولذلك نجوا وتكاثروا بشكل أفضل مقارنةً بأولئك الذين لم يرثوا هذا النوع من التكيف وبالتالي لم يشتهوا الأطعمة التي يحتاجونها.

وبمجرد أن عثروا على هذه الأطعمة، أكل أسلافنا حينها أكثر من حاجتهم كلما سُنحت لهم الفرصة. وفي العالم الذي تطورنا فيه، لم يتوقعوا أن يعثروا على هذا النوع من الأطعمة مرةً أخرى في اليوم التالي. إن قابليةهم وتكييفهم لأكل أكثر مما يحتاجونه مما السبب في حل المشكلة المتمثلة في عدم القدرة على التنبؤ بالغذاء المتاح.

ولكن في يومنا هذا، وفي معظم مناطق العالم المتقدم، أصبح الطعام وفييراً وخلقت الثقافة الإنسانية طرقاً جديدةً للاستجابة لهذه الشهوات. لدينا الآن وجبات سريعة غنية بالدهون غير الصحية التي من شأنها أن تسد شراييننا وتوسيع محيط خصينا، وهي بعيدة كل البعد عن لحوم الطرائد الخالية من الدهون التي رغب بها أسلافنا. وبدلًا من الفاكهة الناضجة، لدينا الآن مشروبات غاوية وألواح من الحلوى.

وعلى الرغم من أننا نعرف مدى الضرر الذي قد يتسبب به تناولنا للدهون والملح والسكر، ما زال نشتاهيهم، بل ونفضلهم على اللحوم الخالية من الدهون والفاكهة الناضجة إن لم نضبط أنفسنا. لماذا؟

لأنها ترتبط بمحفزات غير طبيعية. تتفاعل أدمنغتنا مع هذا الارتفاع المستجد نسبياً في السعرات الحرارية الزائدة عند الطلب على أنه شيء جيد، كما لو أنها ما زلنا بحاجة إلى التصرف كما فعل أسلافنا. تكافئنا أدمنغتنا. حين نأكل طعامنا المفضل، تنفجر مراكز المتعة في دماغنا من فرط السعادة. ما نشعر به ليس مجرد إشباع طفيف، بل متعة شديدةً تبعثها المواد الكيميائية في أدمنغتنا. إن هذه المراكز في أدمنغتنا، التي يتوسطها الناقل العصبي المسمى دوبامين، تدعى مراكز «افعلها مرةً أخرى». إنها لا تمنحنا موجةً من المتعة وحسب، بل تحفزنا على تكرار الفعل الذي جلب لنا هذا الشعور بالرضا.

هذا الإحساس بالمتعة هو تكيف أيضاً. ففي البداية، ساعدنا في حل مشكلة البحث عن الأطعمة الأساسية وتأمينها من خلال تعزيز استهلاكها ومكافأة إيجادها مما تسبب في إبقاء هذا الاستهلاك اللازم للبقاء.

ولذلك، إن اشتاهاءنا غير المنطقي لهذه الإبداعات الثقافية الجديدة ينبع من التكيفات التي ساعدت في ضمان البقاء – الشهوات التي دفعت أسلافنا إلى البحث عن الدهون أو الحلويات وساعدتهم على البقاء. ولكن هذه الأطعمة الحديثة، المليئة بالدهون والسكر أكثر من أي نوع طعام وجده أسلافنا أو

اصطاده، تشبع الشهوات بمكافآت عاطفية ومحفزات لاحقة أقوى بكثير مقارنةً بالحوم الطرائد أو الفاكهة الناضجة في السابق.

ولهذا السبب لم يكن القول بأن فهمكم لسيكولوجية الوجبات السريعة يعني فهمكم لسيكولوجية الدين مجرد مزحة. من خلال تصميمنا للوجبات السريعة، سرقنا دون قصد التكيفات القديمة المتمثلة باشتهاه وتأمين الدهون والحلويات الضرورية التي أبقت أسلافنا على قيد الحياة وقدارين على التكاثر.

لم نتطور لنشتهي الوجبات السريعة، ولكن أدمغتنا ما تزال تعتبرها تكيفاً. إن اشتهاءنا لتناول الوجبات السريعة مجرد ناتج عرضي. ولكنه الآن أصبح خطراً لأنه حين يخرج عن نطاق السيطرة يمكنه أن يتسبب في مشاكل صحية لم يواجهها أسلافنا من قبل على الأرجح.

وهذا يعود بنا إلى الدين – أو إلى التكيفات التي ينبع منها الإيمان، لنكون أكثر دقةً.

هل ما نشتته مفيد لنا دائمًا؟

الفصل الثالث

قوتنا اليومي

تُوقُّ إلى راعٍ

علينا، رغم ذلك، أن نعترف أن الإنسان، كما يبدو لي، رغم كل صفاته الحميدة... يحمل ختم أصله المتواضع الذي لا يمحى في طيات جسده

– تشارلز داروين

يعمل عدد لا يُحصى من القدرات الذهنية القائمة على البقاء في عقولنا في الخلفية، وهي متأهبة للاستعمال دائمًا. تساعدنا تلك القدرات على التنقل في العالم، ولا سيما العالم الاجتماعي. ونحن بالكاد نلاحظها، وحتى حين نفعل ذلك، فنحن نعتبرها من المسلمات، ولكنها مثيرة للدهشة، ولا غنى عنها لبقاءنا خلال مراحل تطورنا وحتى الآن. تلك التكيفات هي أحجار البناء لمعتقداتنا الدينية.

نظام التعلق

كما تقول الأغنية، نحن بحاجة إلى شيء نتکئ عليه. إن نظام التعلق لهو من أقوى التكيفات لدينا. إذ لم يكن بوسع نوعنا أن يصمد، ناهيك من أن يتتطور، من دونه. فحين يشعر معظمنا بالكرب، نبحث عن راعٍ أو نلجاً إليه. وتنشأ هذه الحاجة الدافعة في اليوم الذي نخرج فيه من الرحم

- ومن وجہہ نظر کیمیائیہ عصبیہ بحثہ، فھی علی الأرجح تنشاً قبل ذلك بكثير.

أول من وصف نظام التعلق المعالج النفسي البريطاني جون بولبي في أربعينات القرن العشرين، وطورته لاحقاً عالمة النفس الكندية الأمريكية ماري إينزورث، وبينته في سلسلة من التجارب المحكمة مع الأمهات والأطفال. ويُعد نظام التعلق الأساس للرابطة بين الوالد والطفل. وهو إرث من تراث الثدييات الذي يعود تاريخه إلى عشرات ملايين السنين أو أكثر.

يعتقد علماء الأعصاب الآن أن التعلق حاجة بدائية للغاية لدرجة أن هناك شبكات من العصيّونات في الدماغ مُكرسة لها، وتستمد عملية تكوين الروابط الدائمة طاقتها جزئياً من الأوكسإيتوسين، وهو ببتيد عصبي سنتاقشه باستفاضة أكثر لاحقاً.

حين تكون صغاراً بلا حول ولا قوة، يحل التعلق مشكلة إيجاد مصدر أساسي للحماية والبقاء والتشبث به. وحين نكبر، ينشط نظام التعلق في الحب الشاعري. وبعد أن يتلاشى بريق الشاعرية في صورة أي نوع من الشراكة المستدامة، يظل نظام التعلق قائماً. فهو يستخدم نفس آلية الرابطة بين الوالد والطفل لتوطيد الروابط بين البالغين.

يؤثر التعلق كذلك في العلاقات الأخرى بين البالغين. إذ تنتفع الصداقات الحميمة منه، ولهذا السبب أنت تلجأ إلى أصدقاء بعيونهم دون غيرهم في الأوقات

الصعبه. ومع تطورنا ومع تكوين مجموعات صغيرة، ساهم التعلق بالرفاق والبالغين الآخرين في بقائنا كأفراد وكنوع.

ومن الأمثلة المروعة لنظام التعلق في أجدادنا هو وصف عالمي المستحاثات البشرية ألان ووكروبات شيبمان لامرأة من نوع الإنسان المنتصب (*homo erectus*) التي اكتشفت بقاياها المتحجرة في أفريقيا. تظهر المستحاثات بوضوح أنها ماتت من التسمم بفيتامين أ، وعلى الأرجح أن هذا كان بسبب أكل كبد حيوان. ومن المرجح أنه بعد إصابتها بالتسمم ظلت على قيد الحياة لأسابيع، أو شهور، بينما كانت تعاني من نزيف في الأربطة وألم فظيع.

من الحال أن هذه المرأة ظلت صامدة في السافانا قبل مليون سنة مضت دون أن يكون لها راعٍ. لا بد من أن شخصاً ما أحضر لها الطعام والماء، وحمها من المفترسات في ليالي أفريقيا.

واليوم، نحن نرى نظام التعلق كل يوم في حيواناتنا وفي علاقاتنا الخاصة بأصدقائنا، وعشاقنا، وأزواجنا، وأطفالنا. في الواقع، يحظى نظام التعلق على هذا النحو بقبول واسع بصفة شائعة إن لم تكن دائمة. إذ لا يتعلّق الناس بأفراد العائلة فقط، بل يتعلّقون أيضاً بحيواناتهم الأليفة، وعشاقهم، وأصدقائهم المقربين. وحتى صديق تشارلي براون، لينوس، يبدي تعلقاً بملاءته، كما يتعلّق أي طفل صغير بدميته المحسوسة المفضلة. كل ذلك يشعرنا بالأمن والأمان.

وبالطبع، يتعلّق المُتدينون بِإلههم. ولا يتطلّب الأمر قفزة إيمانية لإدراك كيفية عمل نظام التعلّق لا في التعاملات الجسدية فقط بل في نزعة الإنسان إلى الرغبة في التعلّق بهيكل ديني بالإضافة إلى كائن محب أبدي لا يتغيّر. فكر في طفل بعمر عامين يمد ذراعيه رغبةً في أن يلتقطه أحد ويحضنه. فهو يمد يديه فوق رأسه ويتسلّل إليك. والآن فكر في العابد الخمسيني الذي يتكلّم بالألسنة. فهو يمد يديه فوق رأسه، ويتضرّع إلى الله بنفس إيماءة «التقطني وضمني إليك». ذلك لأننا قد نفقد الشخصيات الإنسانية التي نتعلّق بها من خلال الموت، أو سوء الفهم، أو الابتعاد، ولكن الله موجود دائمًا من أجلنا. نحن نرى ذلك كثيراً في الطب النفسي العملي. فقد بحثت شابة يافعة اعتدى عليها والدها جسدياً وعاطفيًا ولفظيًا عن النقيض التام لذلك في الدين المسيحي: أب متفهم يحبها ويقبل حبها. وهي تطلب الإرشاد من الله في اتخاذ قرارات الحياة، وتتكلّم معه كما يفعل بالغ صغير مع والد مساند ومطلع، وتقلق بشأن رد فعله كما تقلق شابة من رد فعل والدها.

الحقيقة أننا لا نفقد حنينا إلى وجود راعٍ أبداً. من سيحميك ويحمي أحباءك من الجوع، والمرض، والكارثة، والموت، ومصائب الحياة الأخرى؟ والداك؟ حين كنت صغيراً، قبل أن تعرف حتى مفهوم الألوهية، كان والداك تجسيداً للآلهة، إذ كان بوسعهم فعل أي شيء. أما اليوم، لو كانوا لا يزالون على قيد الحياة، فأنت تعلم أنهما إنسانان عاديان مثلك تماماً، ولا يملكان قوة أكبر

مما تملّكها للحماية، وتسكين الجروح، وكبح أمواج الحظ والمصير التي تدفعنا بتهور عبر الحياة. ومن الممكن أنهما الآن يعتمدان عليك.

أما أب السماء القادر على كل شيء والعالم بكل شيء، إن تضرعت إليه كثيراً وبشدة، قادر على أن يحمينا ويحمي أحباءنا، وقدر أيضاً على أن يساعدنا في إيجاد مجتمع من الأفراد ذوي التفكير المتقارب، ويقينا من الخوف من الموت، ويضمن لنا خلاصنا، ويوفر لنا حياة آخراً تعوض كل معاناتنا البشرية وأكثر. هذا هو وعد الدين. ليس بإمكان والدينا أن يعنوا بنا إلى الأبد، ولكن يهوه بوعيه ذلك. لن تجد ملحدين في الخنادق أبداً.

يمنحنا الدين «آباءً» خارقين للعادة، شخصيات مذهلة نتعلق بها لا نعهد مثلها في الحياة اليومية أبداً، وليس بمقدورنا ذلك أبداً. حين نشعر بالكرب، نحن نلجأ إلى إله يسمع صلواتنا، ويحقق لنا الأمنيات، ويحمي أحباءنا، ويطمئننا إلى وجود مكافأة مهما كانت مصاعبنا وخيمة.

وعلى غرار الرغبات الملحة في الطعام السريع التي باتت الآن تثمر عن نتائج عكسية، تنشأ الأفكار الدينية من التكيفات، ولكن أديان اليوم توفر محفزات خارقة للعادة ومكافآت حادة للغاية من شأنها أن تتسبب في بحث يائس عن المزيد. وعلى غرار الرغبات الملحة في الطعام السريع، تنشأ الأفكار الدينية من التكيفات التي أبقيت أجدادنا على قيد الحياة – ولكن ذلك لا يعني أن تلك الرغبات مفيدة لنا.

ما الذي تفضله، التوفو أم شرائح اللحم؟ البروكلي أم بوظة الفودج الساخن؟ أيهما يعطيك دفعـة أكبر من المتعـة؟

التعلق والرفض

هذه الحاجة إلى التعلق تسـاهم في كلٍ من سهولة تقبل الدين وصعوبة رفضـه. فبـكل بساطـة، نـحن نـريد أن نـؤمن بـوجود شيء أبـدي نـحبـه.

وبـوسـعنا أن نـرى ذـلك في حـيـاة تـشارـلـز دـارـوـين الـخـاصـة. فـحين خـرج فـي رـحلـته الشـهـيرـة عـلـى مـتن سـفـينة بيـغـلـ، مـن 1831 إـلـى 1836، كان دـارـوـين مـقـتـنـاً بمـذـهـب الـخـلـقـية. وـحـين عـاد مـن رـحلـته، أـعـطـى عـيـنـات طـيـور الـغالـابـاغـوس الـخـاصـة بـه إـلـى عـالـم طـيـور جـون غـولـدـ. وـقـد فـكـر دـارـوـين مـسـبـقاً فـي إـمـكـانـيـة أـن الـأـنـوـاع لـيـسـت ثـابـتـة وـأـنـها تـتـغـيـر مـع الزـمـنـ - أـو أـنـها، عـلـى وجـه التـحـدـيدـ، لـيـسـت خـلـقاً لـا يـتـغـيـر مـن صـنـع إـلـهـ ماـ. وـحـين أـخـبـرـه غـولـدـ أـن طـيـور الـغالـابـاغـوس هـي أـنـوـاع مـن الشـرـشـورـيـات مـجـهـولـة لـدى الطـبـيـعـة وـلـم يـسـبـق وـصـفـها مـن قـبـلـ، صـارـ من الواضحـ لـه أـن الـأـنـوـاع تـغـيـر طـبـقـاً لـلـبـيـئة وـبـمـرـورـ الزـمـنـ.

وـفي صـيف 1837ـ، فـتـح دـارـوـين دـفـاـتـرـه الشـهـيرـة وـرـسـم شـجـرـة الـحـيـاةـ، مـبـيـنـاً فـكـرة أـن الـأـنـوـاع تـطـوـرـتـ. وـلـاحـظـ أـن «الـإـنـسـان بـغـطـرـسـتـه يـعـتـبـر نـفـسـه عـمـلاً عـظـيمـاً يـسـتـحـق تـدـخـل إـلـهـ عـظـيمـ. وـالـأـكـثـر تـواضـعـاً مـن ذـلـكـ، وـمـا أـعـتـقـد أـنـه صـحـيحـ، أـنـ يـعـتـبـر نـفـسـه مـخـلـوقـاً مـن الـحـيـوانـاتـ»ـ.

ولـكـن دـارـوـين لـم يـفـهـم الـآلـيـة الـتـي يـحـدـثـ مـن خـلـالـهـ هـذـا التـغـيـرـ فـي الـأـنـوـاعـ عـبـرـ الزـمـنـ بـعـدـ. وـفـي سـبـتمـبرـ عـام 1838ـ، قـرـأ «مـقـاـلـة عـن مـبـدـأ السـكـانـ»ـ لـتـوـمـاسـ

روبرت مالتوس، التي طرحت فكرة أن الحيوانات تنتج صغاراً أكثر بكثير مما يمكن لهم البقاء. ووصل إلى الاعتقاد بوجود كفاح من أجل الوجود، وأن أولئك الذين يحظون بما يلزمهم الأمر للبقاء والتکاثر هم من يصمدون في المستقبل. لقد فطن إلى الأمر.

ولكن حتى داروين لاقى صعوبة شديدة في رفض الدين. فقد كان، في زمانه، مخطوبًا لبنت عمه المتدينة، إيماء ويدجورود. وفي وقت ما في خريف 1838 لا بد من أنه أخبرها عن أفكاره. فقد كتبت في خطاب له لا يزال موجوداً حتى الآن: «إن عقلي يخبرني أن الشكوك الوعائية والصريرة ليست إثماً، ولكنني أخشى من أنها ستكون فراغاً مؤلماً بيننا». وقد تزوجا في يناير عام 1839. ومن المؤكد أنه نجح في وضع فكرة الانتقاء الطبيعي الخاصة به في ذلك الحين، ولكنها ظلت غير منشورة لعشرين عاماً، ومن المرجح أن السبب الجزئي في ذلك على الأقل هو الضائقه التي علم أنها ستحل بزوجته إثر نشرها. ولكن بحلول خمسينيات القرن التاسع عشر، كان الفرق بينهما واضحًا في صباح أيام الأحد. فقد كان يسير مع إيماء وأطفاله إلى الكنيسة، ثم تدخل هي وزوجتها إلى الكنيسة ويواصل داروين السير. فقد ماتت ابنته المحبوبة أني من السل، ومات معها إيمان داروين بالدين.

و قبل عام من وفاة ابنته في 1881، حين كان داروين ينهي سيرته الذاتية، أعاد داروين قراءة خطاب من إيماء مكتوب في فبراير عام 1839 كتب فيه:

«أتمنى ألا تؤثر العادات العلمية، التي تقتضي بـألا تصدق شيئاً دون إثبات، في عقلك كثيراً فيما يخص الأشياء الأخرى التي لا يمكن إثباتها».

ومن المرجح أن إيماناً المسيحية المخلصة كانت تشعر بالأسى من أفكاره، وبالطبع، من غياب إيمانه. وفي نهاية هذا الخطاب كتب داروين: «حين أموت، أعلم أنني قبلتُ هذا الخطاب وبكيتُ عليه مراراً وتكراراً. ت. د.»

إن نظام التعلق ليس جزءاً حيوياً من الإيمان الديني فقط، بل هو على الأرجح من بين التكيفات التي تجعل الانحراف عنه صعباً. فقد كتب كارل غيبرسون في كتابه إنقاذ داروين: كيف تكون مسيحيًا وتصدق التطور: «لدي سبب يضطريني إلى إيمان بالرب. إن والدي ملتزمان التزاماً بالغاً بال المسيحية، وستتحطم نفسيهما إذا رفضت إيماني. وزوجتي وأطفالي يؤمنون بالرب... ومن شأن التخلي عن إيماني بالرب أن يكون مدمرًا، وقد يجعل زوجتي خارجة عن السيطرة».

ولكن أحباءنا غير مضطرين إلى أن يخبرونا صراحةً بأن انحرافنا مما كان في السابق اعتقاداً مشتركاً، أو رفضنا لمشاركة معتقداهم، سيجعلهم غير سعداء. فنحن نعلم ذلك بالحدس، وذلك بفضل تكيفات بشرية فريدة -باتت الآن جزءاً من التصميم الأساسي لدماغنا- تسمح لنا باستنتاج ردود أفعالهم لقراراتنا، حتى لو لم يقولوا شيئاً. وهي تبدأ بقدرتنا على فصل عقولهم من أجسامهم ذهنياً، ما يعود بنا بدوره إلى قدرتنا لا على الاعتقاد بما لا نراه فقط، بل على التفاعل مع ما لا نراه أيضاً. نحن ولدنا بقدرة قراءة ما قد يدور في ذهن الآخرين

حتى لو لم يكونوا هنا ليخبرونا. وبطريقة ما، كل أولئك الذين نتعلق بهم يغدون أحياناً أصدقاء خياليين.

الفصل الرابع

كل ما يرى وما لا يرى

تصور الأرواح

إن أسمى مرحلة ممكنته في الثقافة الأخلاقية هي عندما ندرك أن علينا التحكم بأفكارنا.

– تشارلز داروين

انفصال العقل عن الجسم

لأننا نحتاج العمل مع الآخرين للبقاء، فقد طورت أدمنتنا القدرة على تكوين الافتراضات عن الآخرين، لإنشاء تصور حديسي لمساعدتنا على التعايش في ظل محيط اجتماعي. ولدنا على قبول أن الآخرين أمثالنا، كائنات عامة بعقول كعولنا، رغم أننا لا نستطيع رؤية عقولهم حرفيًا.

من جوانب هذا ما يسمى انفصال العقل عن الجسم أو الثنوية، وهي النظرة التي ترى أن العقل يعمل بشكل منفصل عن الجسم، دون تبادل بينهما. لا نستطيع تصور أرواحنا إلا إذا كنا نرى العقل منفصلاً عن الجسم. ونحن نرى ذلك، لأن أدمنتنا مكونة بهذه الطريقة.

تحتوي المنطقة الجبهية الإنسية من أدمنتنا، خلف المساحة بين العينين تماماً، على دارات الاستبطان، وإدراك صفاتنا غير الفизيائية، وحالاتنا وخصائصنا العاطفية، وأمنياتنا ورغباتنا. وهي أيضاً الجزء من أدمنتنا الذي

نتأمل بواسطته كل ما هو مجرد: عقول الآخرين، ونواياهم، ومعتقداتهم، ورغباتهم، ومشاعرهم - الصفات غير الفيزيائية الخاصة بهم.

هذه القدرة ليست مكتسبة؛ بل هي فطرية، متأصلة. يمثل الدماغ العقل والجسد في دارات عصبية منفصلة. يسمح لنا هذا بفصل العقول عن الأجساد، تكون تجربتنا واعتقادنا أنهما صنفان مختلفان بالكامل.

الجزء الوحشي من أدمغتنا هو الذي ندرك فيه الأشياء الملمسة، المرئية كوجوهنا وأجسادنا وحركة الآخرين بالنسبة لها. وهو أيضاً المكان الذي نلاحظ فيه الجوانب الخارجة عن المعتاد من الحالات التي تكون فيها، كإدراك شيء يتحرك وهو لا ينبغي له ذلك.

الأفكار الدينية مؤثرة وتصمد لأنها تناسب هذه البنية بشكل جيد، هذا الفصل بين العقل والجسد.

كالعديد من المفاهيم شديدة الأهمية بالنسبة للدين، فإن الفصل بين المتحرك وغير المتحرك يمكن مشاهدته في الرضع والأطفال. يرتكب طفل بعمر خمسة أشهر إذا رأى صندوقاً يتحرك وحده. ولكن شخصاً يتحرك جزء معتمد من الحياة اليومية ولا يسبب أي ارتباك من هذا الطفل ذاته. من الطبيعي بالنسبة لدماغ الطفل أن يفكر بالحركات العامة، ولكن خاصية فيزيائية غير عامة - كالصندوق - يجب ألا تتحرك كالكائنات العامة - الأشخاص.

في تجربة كاشفة مع الأطفال، صنع جيسي بيرينغ، عالم فيزيولوجيا في جامعة كوينز في إيرلندا، عرض دمى. في العرض، يبتلع تماسح دمية فأرًا دمية.

سؤال بيرينغ بعدها الأطفال أسئلة متنوعة عن الفأر. أما زال الفأر يأكل؟ أما زال الفأر يفتقد أمه؟ علم الأطفال أن الفأر لم يعد يأكل، ولكنهم ظنوا أنه يفتقد أمه. عزا هؤلاء الأطفال الصغار لفأر ميت حالةً عقلية لم يستطعوا تصور أنها لم تعد موجودة.

غالبًا ما يظهر هذا المفهوم في النقاشات المتعلقة بحقوق الإجهاض بطرح السؤال التالي بطريقة ما، «كيف ستشعر لو كنت أنت قد أجهضت؟» تظهر تجربة بيرينغ البسيطة والعبرية أن حتى الأطفال تظهر لديهم ظاهرة الفصل بين العقل والجسد؛ هذا يعني أن الإيمان بما وراء الطبيعة ليس أمراً مكتسباً من الثقافة التي تحيط بنا كأطفال خلال النمو من مرحلة الرضاعة إلى مراحل الطفولة المبكرة والمراحل الأكثر وعيًا من الطفولة. بل هو عادة متصلة، لا يتطلب تحفيزًا اجتماعيًّا.

يظهر الأطفال أيضًا جانبيًّا آخر من هذا الأساس الاعتقادي الديني. لدى نحو نصف الأطفال بعمر الأربع سنين أصدقاء تخيليون. واتضح أن الذين يمتلكون هكذا أصدقاء يكبرون ليصبحوا أكثر كفاءةً اجتماعيةً. يعد الله، بعدة طرق، صديقنا التخييلي.

مهما تكن نسخة ما وراء الطبيعة التي تحملها ثقافتنا بها، فهي تحظى على عقل معد مسبقًا بانحياز لقبول أن حياة الإنسان العقلية وقدراته تعوم حرًّا باستقلال عن أي جسد حي أو ميت. الاعتقادات الفائقة للطبيعة لأدياننا تقرصن

بساطة الطريقة التي صمم دماغنا للتفكير بها تجاه الأشخاص الآخرين، وعقولهم، ونياتهم. يظل العقل وكل ما يمتلك به منفصلاً عن الجسد. إن فهم نظام الربط وفصل العقل والجسد هو مجرد البداية لفهم الطرق التي يمكن بواسطتها للعقل أن يخدع ليتمسك بالاعتقادات.

الفصل الخامس

لأن الكتاب المقدس يخبرني بذلك

الإيمان بما لا يُرى

جمالية كما هي أخلاقية العهد الجديد، لا يمكن إنكار اعتماد كمالها جزئياً على التفسير الذي نضعه الآن على عاتق الاستعارات والرموز.

– تشارلز داروين

الإدراك المنفصل

تخيل أن الطريقة الوحيدة للتفكير فيما قد يدور في ذهن شخص آخر هي جلوسه أمامك. ستغدو العلاقات الإنسانية كما نعرفها مستحيلة، والأمر نفسه انطبق أيضاً على أسلافنا. نحن بحاجة إلى تقييم أفكار الآخرين ومشاعرهم المحتملة، حتى عند عجزنا عن رؤيتهم.

لهذا السبب، يتکيف البشر بطرائق فريدة لقبول وجود كيانات بلا جسد وافتراض تصرفها تصرفات معينة. معظمنا يفعل ذلك كل يوم.

هل فكرت يوماً بردّ مثالٍ في مشادة كلامية بعد فوات أوان استخدامه، وأعاد عقلك ترتيب المحادثة وكيف أمكن أن تنتهي؟ هل بقيت مستيقظاً في الليل قلقاً بشأن إصلاح خطأ اجتماعي أو مهني؟ أو تتدرب ذهنياً على عرض الزواج على أحدهم أو طلب علاوة؟

نحن البشر نمتلك قدرةً رائعةً على خلق تفاعل معقد مع شخص آخر غير مرئي – رب عمل أو زوجة أو صديق – في أذهاننا وتطبيقه، بصرف النظر عن

الزمان أو المكان، في الماضي أو في المستقبل. خضت جدًا؛ كنت مخطئاً؛ تريد الاعتذار ولكن عليك التخطيط لكيفية اعتذارك. أنت تتدرب عقلياً، وتصور كيف سيستجيب الشخص الآخر. وهذا كله يحدث في أثناء ممارسة حياتك اليومية. هذا يسمى الإدراك المنفصل، وهو مفتاح الاعتقاد الديني.

نحن قادرون على فصل إدراكتنا عن الزمان والمكان والظرف. تنشأ هذه القدرة في مرحلة الطفولة وتُرى بوضوح في وقت اللعب. قد يقول الطفل إن غطاء الزجاجة طبق طائر. ومع أنه يعرف حقيقة الأمر لكنه قادر على اختيار تجاهل الواقع والتفكير فيه على أنه طبق طائر، مع السمات المتخيلة والمرتبطة به على هذا النحو. هنا يفصل الطفل إدراكه.

يستخدم رواد المسرح والسينما «تعطيل الاستنكار» هذا طوال الوقت. يعرفون أن ما يحدث على المسرح أو الشاشة ليس حقيقياً. ومع ذلك، يختارون المشاهدة وتصديق أن الشخصيات الخيالية موجودة فعلاً، وأنها تعيش في مكان وزمان آخرين، وأن السيارة قد انفجرت بالفعل إلى قطع صغيرة، وأن شخصية أخرى عادت إلى الحياة.

كبالغين، هذه الآلية مهمة للذاكرة والتخطيط. يمكننا الإبحار في الزمان والمكان والظروف خلال تفكernا في كيفية إدارة العلاقات في حياتنا. نتذكر الاجتماع مع المدير، أو نخطط لحادثة مستقبلية؛ كل هذا التفاعل يجري مع الآخرين غير الموجودين في اللحظة.

من الطبيعي أن نتفاعل في أذهاننا مع الآخرين غير المرئيين. كثير منا يتحدث ذهنياً مع أحبابه الذين رحلوا عنه مؤخراً. وعليه فإن الامتداد الطبيعي لذلك - لقفزة الإيمان، إن شئت تسميتها هكذا - قد يأخذ شكل عبادة الأسلاف والإيمان بالآلهة. إن قدرة عقولنا على استحداث علاقة معقدة مع الآخرين غير المرئيين تتواتر حقاً.

آليات نظرية العقل

مرتبطةً ارتباطاً وثيقاً بالإدراك المنفصل، تظهر قدرة عقلية مذهلة، أنظمة في أدمغتنا تسمى آليات نظرية العقل، وهو اسم مبسط لهبة رائعة. قبل تصور رد فعل شخص ما، علينا أن نجد طريقنا نحو فهم كيف يفكر هذا الشخص وبم يفكر. وفي أغلب الأحيان، نحن قادرون على القيام بذلك. نمتلك قدرة فطرية على «قراءة» أفكار شخص آخر أو معتقداته أو رغباته أو نوایاه، بتفصيل مبهر ودقة ملحوظة، ومن ثم وضع افتراضات بناءً على ذلك.

فكرة في أشخاص تعرفهم جيداً. ربما تستطيع أن تخيل بدقة نسبية المشكلات التي قد تشغلك بالهم في هذه اللحظة بالذات. يمكنك وضع تخمين مستنير لأفكارهم عنك. ومن المحتمل أن هذه القدرة ساعدت أسلافنا على تحديد الأصدقاء وغير الأصدقاء، والتفاعل اجتماعياً، وعليه التخطيط للبقاء والاستمرار. قد تجسد هذه القدرة على الاهتمام المترابط سر التفرد البشري. وحدنا بين القردة المتطرفة، ننخرط في أنشطة تعاونية معقدة مع الآخرين، لا نقرأ فيها

عقول الآخرين فقط بل الآخرين الذين يقرؤون عقولنا أيضًا. وهذه كلها نعدها أمورًا بدائية لأنها تبدو بسيطة للغاية. لكنها ليست كذلك.

ومن الأمثلة على ما سبق؛ خطط أنا وأنت لمشاهدة فيلم التاسعة مساءً. لقد وضعنا خطة للتعاون في مشروع مشترك. يعرف كل منا التزام الآخر بالمهمة. لكنك تعلم أنني قد أتأخر، فتخبرني أن أصل في الوقت المحدد، وأننا مدرك إحباطك من تأخري المعتاد. أنت تعلم أنني على علم باستيائك من تأخري. فعندما أصل قبل متسع من الوقت، تتسم. أعلم أنك مسرور من تقديري الموعيد، وأنت تعلم أنني أرى سعادتك وأفهمها. لا حاجة إلى قول كلمة واحدة.

إنها مجرد خطوة واحدة صغيرة نحو تصور عقل غير متبلور الملائم يشبه العقل البشري، ذي أفكار ومشاعر ونوايا تجاهك أنت ورفاقك. يمكننا تخيل هذا العقل المؤنسن والدخول في مشروع مشترك معه؛ سنبني كاتدرائية معه ومن أجله. ومن ثم يغدو سعيدًا. وسوف نعلم أنه سعيد إذا اعترضت الثروات طريقنا.

المفهومية

من الظواهر وثيقة الصلة تذكر المفهومية؛ قدرة عقلية أخرى غير عادية، سُلِّم بها أيضًا. نستطيع تبيانها كما يلي:

الفرض الأول

«أفكـر».

الفرض الثاني

«أعتقد أنك تفكـر».

الفرض الثالث

«أعتقد أنك تعتقد أنني أفكّر».

الفرض الرابع

«أعتقد أنك تعتقد أنني أعتقد أنك تفكّر».

دعونا نجربها بهذه الطريقة:

الفرض الأول

«أتمنى».

الفرض الثاني

«أتمنى أن يعجبك هذا الكتاب».

الفرض الثالث

«أعلم أنك تعلم أنني أتمنى أن يعجبك هذا الكتاب».

الفرض الرابع

«يمكنك أن تتيقن من أنني أعلم أنك تدرك أنني أتمنى أن يعجبك هذا الكتاب».

قد يختلف هذا طبعاً حسب الظروف. تخيل موقفاً اجتماعياً؛ امرأة تتحدث إلى رجل تعتقد أنه ممل، لكن الرجل يعتقد أن المرأة تراه جذاباً للغاية. في زاوية من الغرفة، يراقب زوج المرأة، الذي يشك في أن زوجته تغازل الرجل الآخر، لأنها تعلم أنها غاضبة منه ويفطن أنها تنتقم منه - وهو ما قد تفعله في الواقع، مع العلم أن ذلك سيزعج زوجها.

هذا النوع من الوعي بأفكار الآخرين، وبأفكارهم حول ما قد نفكر فيه، سمة لا غنى عنها أبداً للعلاقات الاجتماعية. إن توظيف الأديان المفهومية أمر لا ريب فيه.

الفرض الأول

«أنا أؤمن».

الفرض الثاني

«أؤمن أن الله يريد».

الفرض الثالث

«أؤمن أن الله يريدنا أن نعمل بنية صالحة».

الفرض الرابع

«أريدك أن تؤمن أن الله يريدنا أن نعمل بنية صالحة».

الفرض الخامس

«أريدك أن تعرف أننا كلانا يؤمن بأن الله يريدنا أن نعمل بنية صالحة».

يلاحظ عالم النفس روبن دنبار أن الفرض الثالث من المفهومية هو «الدين الشخصي». ولكن حتى تقتنع، لا بد من فرض رابع منها - شخص آخر يرفع حالتك الذهنية، ويطلب منك الإيمان. وبذلك ينتج «الدين الاجتماعي».

حتى لو قبلت حقيقة الدين الاجتماعي، فإنها لا تلزمك بأي شيء. وإن أضفت الفرض الخامس، فإنك تقبل الادعاء، وتصبح مؤمناً، وتخلق «ديناً

جماعياً». يصبح الأفراد معاً قادرين على الاستناد إلى الالتزامات والمطالبة بأن يتصرف الآخرون وفق منهجيات محددة.

نلاحظ تطور هذه القدرة على المفهومية المشتركة عند الرضع قبل أن يتمكنوا من الكلام بوقت طويل. خذ طفلاً صغيراً، وأجلسه على الأرض، ودحرج كرة أو نططها معه ذهاباً وإياباً. سيشاركك بسهولة اللعب. ثم اجعل الكرة ترتد بعيداً عن متناولك. سيجلب الطفل الكرة ويضعها في يدك ويشير لاستئناف اللعبة. إنه يعلم أنك تعرف اللعبة وأنك تعلم أنه يريد اللعب مرة أخرى.

قد تكون هذه المفهومية المشتركة في العمل المشترك أساس اللغة. إذا كنت أنت وأنا من المتحدثين باللغة الإنجليزية، فكلانا يعرف أن الآخر يعلم أن المصطلح الاعتباطي *book* أي «كتاب» يشير إلى ماهية هذا المصطلح. وإذا كنا فرنسيين، فكلانا يعرف، ويعرف أن الآخر يعرف، أن الاصطلاح الاعتباطي هو كلمة *Livre* الفرنسية.

قد يؤدي وضع افتراضات دقيقة نسبياً حول الآخرين دوراً حتى عند مقابلتنا أشخاصاً لا نعرفهم، أو لا نعرفهم جيداً على أقل تقدير. لقد طورنا تكيفات منفصلةً ومخصصةً لتقييم نظرة العين، وهذا يفسر تسمية الأعين «نوافذ الروح». يمكننا جمع الكثير من المعلومات عن الآخرين من أعينهم، ما سمح ربما لأسلافنا بتحديد عداء الآخرين داخل قبائلهم أو خارجها، أو معرفة الصديق من العدو في اللقاءات العابرة. ولعل تحديق طفل لا تعرفه بثبات فيك دليل عملي على ما سبق.

أثبت عالم النفس سيمون بارون كوهين من جامعة كامبريدج هذه القدرة العقلية، إذ أظهر بتفاصيل مذهل قدرتنا العقلية على قراءة عدة مئات من الحالات العاطفية المنفصلة لدى أشخاص آخرين من طريق النظر إلى أعينهم فقط، وبدرجة معقولة من الدقة. باختصار، يمكننا إصدار أحكام معقدة حول شخص لا نعرفه وعقل /دماغ لا يمكننا رؤيته مباشرة.

التحويل

إن مخاطبة الإله باسم أبونا لا يرتبط فقط بنزعتنا نحو تأسيس ارتباط، بل أيضاً بآلية تكيف تسمى التحويل، آلية تفيد خاصةً في فهم جوانب معينة من الدين. كلنا نؤسس بصورة غير واعية علاقات حياتية بناءً على علاقات سابقة. مثلما نتعلم المشي والتحدث في وقت مبكر من الحياة، نتعلم إستراتيجيات التعامل مع الآخرين. وتشكل إستراتيجيات العلاقات المبكرة هذه خصائص شخصية دائمة، لتصبح في جميع الأحوال القواعد التي نستخدمها لإنشاء علاقات لاحقة.

كمثال على ذلك، نتعامل بصفة بالغين مع شخصيات السلطة بالطراائق نفسها التي استخدمناها في سنوات النشأة. نحن نفترض أن هذه السلطات الجديدة ستستجيب لنا كما استجاب أصحاب السلطة في ماضينا، ونبني موقفنا تجاه الشخصيات الحالية على تلك التجارب السابقة. فإذا كانت قاسية، نفترض أن السلطات الحالية ستعاملنا معاملة سيئة. نحن نعدل علاقتنا بهم وفقاً لذلك، حتى مع اختلاف الظروف وتحسن تعامل السلطة الحالية معنا.

لكن لماذا تطورت القدرة على التحويل في العقل البشري؟ ما المشكلات التي تحلها؟ ما الوظيفة التكيفية التي تخدمها؟ إننا نستخدم اختصار التحويل لإسناد المشاعر والسلوكيات إلى الآخرين، والتي ربطناها أصلًا بشخصيات مهمة في حياتنا المبكرة. في أفضل الظروف، يُعد تأسيس العلاقات الحالية استناداً إلى علاقات سابقة - حقيقة أو متخيلة أو مرغوبة - طريقة فعالة لتوقع النتائج. تخيل مآل الأمور إذا اضطربنا إلى إعادة تعلم كيفية الارتباط بالأفراد في كل علاقة اجتماعية جديدة.

يرصد المعالجون النفسيون باستمرار الطرائق العديدة التي أسهمت فيها العلاقات المبكرة المضطربة في تشويه العلاقات الحالية. عندما يتكرر هذا التحويل في العلاج التحليلي النفسي، تصبح تفاصيل التحويل نفسه ساحة للعلاج.

لكن ما علاقة هذا بالدين؟ تأمل جميع عمليات التحويل المحتملة التي سخرها المعتقد الديني. ينظر المسيحيون إلى الله كأب، وإلى مريم كأم، وهذا دوالياً. ثم فكر في الكيفية التي يمكن أن تتحدد بها هذه المعتقدات مع التحويل الشخصي: الوالدين والأشقاء والآخرين المهمين. غالباً ما يكشف العلاج النفسي للأفراد المتدينين عن العلاقات المبكرة التي تتحول ثم تسهم في معتقدات المريض الدينية.

الفصل السادس

ونجّنا من الشرير

تجسيم الإله (الآلهة)

إن جوهر الغريزة هو أنها تُتبع بعيّاً عن العقل

– تشارلز داروين

هناك سمة إنسانية فريدة أخرى تفضل الدين وهي استعدادنا لعزو القوة أو التأثير (الفاعلية) شبه البشريان إلى كل ما نواجهه تقريباً.

لماذا تظنن الظل لصاً ولكن لا تظنن أبداً اللص ظلاً؟ وإذا سمعت صوت باب يصفق، فلم تتساءل من فعل ذلك قبل أن تعتبر الريح المذنبة؟ ولماذا قد يخاف الطفل الذي يرى أغصان شجرة تنفسها الريح عبر النافذة من أن البعع أتى ليأخذه؟ وفي هذا الصدد، من أين أتى مفهوم الطفولة شبه العالمي لـ «البعع» أو الوحوش الكامنة تحت السرير؟ يعتقد بعض علماء النفس أن فكرة الوحش القابع تحت السرير قد تكون إرثاً من حياتنا المبكرة كأوسترالوبيثيسين. فقد أمضينا الليل في الأشجار والحيوانات المفترسة تتربص بنا في الأسفل واحتفظنا بهذا التيقظ للمخاطر السفلية.

ينحاز البشر بشدة لتفسير الأدلة غير الواضحة على أنها ناجمة عن فاعل متعمد، يكون غالباً فاعلاً شبيهاً بالبشر. يمكن أن تكون هذه القدرة الإدراكية على عزو الفاعلية إلى المشاهد أو الأصوات المجردة قد ساعدت أسلافنا البعيدين على النجاة، وسمحت لهم باكتشاف الأعداء وتفاديهم. لقد أبقوتهم متيقظين

ومنتبهين للأخطار المحتملة. فمن الأفضل أن تنقض على الظلل بدلاً من المخاطرة بانقضاض شيء أو شخص ما عليك.

وسيلة كشف الفاعلية مفرطة النشاط

تحفز هذه القدرة بسرعة دائمًا (مفرطة النشاط) وتوظف بسهولة (مفرطة الحساسية). وقد دعيت وسيلة كشف الفاعلية مفرطة النشاط. تسهم هذه الوسيلة في المعتقدات الدينية لأنها تسمح بل تفضل حتى استنتاج وجود فاعلين غير مرئيين، يكونون دائمًا بشريين أو فاعلين شبيهين بالبشر. وما أن يكون العقل مثل هذا الارتباط، يصبح من السهل القفز إلى الإيمان بالأشباح أو الأرواح، حتى كلية القدرة منها.

كانت هذه القدرة تكيفية، لذا من الطبيعي بالنسبة لنا افتراض وجود كائنات غير مرئية والاعتقاد أنه يمكن لمثل هذه الكائنات التأثير على حياتنا. ومن الطبيعي أيضًا افتراض أنه يمكن لهذا الكائن، إن طلب منه، أن يغير أو يؤثر على ما يحدث لنا. والسؤال يصير بسهولة صلةً.

يمكن للعقل البشري بمساعدة قدرات كشف الوجه المتطورة والقدرات الإدراكية الأخرى الحساسة للأشكال البشرية، أن يرى أشكالاً شبيهة بالبشر في أي مكان تقريبًا - الرجل في القمر، وأشجار التفاح المشاكسة في أرض أوز، والمسيح على شريحة بطاطا، ووجه مبتسם في علامات الترقيم (-).

حتى أن الناس يرون «عين الله» في صورة سديم هيلكس المركبة محسنة الألوان المأخوذة جزئياً من تلسكوب هابل التابع لناسا، الصورة الموجودة على غلاف هذا الكتاب.

وقد يتجلّى هذا أيضاً عندما ننسب الفاعلية إلى غير فاعلين معروفيين، مثل غيوم العاصفة أو الرياح. قد تقول «تبعد السماء غاضبة اليوم»، أو «هذه الرياح وحشية». ومضى الإغريق بالأمر لأبعد من هذا: فقد ألقى زيوس صواعق البرق، وتسبّب بوسيدون في العواصف البحرية، وتسبيّبت السيرانات المغرية والمدمرة في تحطم السفن.

الآن، قد تتسائل، تمهل لحظة، كيف يؤدي الإدراك المنفصل والفاعلية مفرطة النشاط إلى معتقدات خارقة للطبيعة؟ كيف تجاوزنا المحادثات العقلية مع الأسلاف والأنقاض على الظلال إلى الاعتقاد الخارق للطبيعة؟
نحن ننسب بالفعل الفاعلية إلى أشياء عادية جداً ونرحب تلقائياً في قبول اللا مرئي والخوف منه، أو منهم، حتى.

وبصفتنا كائنات اجتماعية تتمتع بهذه التكييفات، بتنا الآن مجهزين للإيمان بشخصية تعلق إلهية. يمكننا نسب الفاعلية إليها، وتحويل بعض مشاعر حياتنا المبكرة باتجاهها، ونتيجةً لذلك يمكننا الاعتقاد أن هذا الكائن يرغب في التفاعل معنا. لكن يظل هذا الكائن غير مرئياً وخيالي إلى حد كبير، بالإضافة إلى فقدان الواضح للعديد من القطع. فكيف تحول إلى إله؟

الاستدلال الاستنتاجي والعالم طفيقة المخالفة للبديهة

نحن نملأ الفراغات. وهذا هو الاستدلال الاستنtagي. إن ملء الفراغات دون التفكير بذلك حتى، والعمل مع بعض الافتراضات الأولية غير المعلنة، هو أساس العوالم طفيفة المخالفة للبديهة.

انظر إلى الصورة أدناه. لا توجد أي خطوط في الصورة، لكنك ترى مربعاً. لقد استدللت إلى مربع من الأدلة المتوفرة، لقد ملأت الفراغات، إن جاز التعبير. وإن كنت تستخدم الرسائل النصية، فأنت تستخدم الاستدلال الاستنtagي وتراه يومياً.



يساعدنا ملء الفراغات، إلى جانب التكييفات الأخرى، على خلق صورة كاملة من صورة شبه مكتملة. فإذا كان هناك عنصر أو عنصران صغيران مختلفان قليلاً، ولكن ليسا عديما الصلة تماماً، يظل بإمكاننا رؤية الصورة وقبولها. فهي ما تزال طفيفة المخالفة للبديهة. هذا هو الأساس العوالم طفيفة المخالفة للبديهة، والتي تعد تسوية مثالية بين ما هو مثير للاهتمام وما هو متوقع. والغريب في العقول البشرية هو أن هذه العوالم طفيفة المخالفة للبديهة مثيرة للانتباه ولا تُنسى.

لو قيل لك أن شجرة البلوط الكبيرة في الحديقة المجاورة لمنزلك ستندفع ضرائبك، وتغسل ملابسك، وتصلح سيارتك، وتخبرك عن مستقبل أسهم

محفظتك الاستثمارية، فلن تجرب حتى تصدق ذلك. لماذا؟ ببساطة، لأن هناك انتهاكات كثيرة لـ «جوهر الشجرة».

ولكن، لو قيل لك أن الشجرة ستسمع صلاتك عند اكتمال القمر، فقد تصدق بسهولة. سيكون ذلك بالتأكيد وصفاً يسهل تذكره. لماذا؟ لأنه على بعد شعرة فقط من الحقيقة. رغم أن بعض القدرات العقلية البشرية، مثل القدرة على الإصغاء للكلام البشري وفهمه والاستجابة له، قد نُسبت إلى الشجرة، لكنها ما تزال شجرة. وتبقى السمة الأساسية لها أنها شجرة، متجمذرة في الحديقة، تخضع لكل ما نفهمه ونتوقعه من الشجرة. ومع ذلك نجد تلك الإضافة السحرية الطفيفة آسراً.

وتتأمل مثلاً الحكايات الخرافية التي سمعتها عندما كنت طفلاً: ملكة جميلة تتذكر في هيئة ساحرة شريرة لكنها تعود إلى صورتها الأصلية بسهولة؛ ساحرة شريرة لديها كوخ مصنوع من الحلويات لجذب الأطفال؛ فتاة تعمل خادمة لدى زوجة أبيها يمكن أن تصبح جميلة وتتزوج أميراً وسيماً.

إنها قدرتنا على بناء هذه العوالم طفيفة المخالفة للبدائية وربطها، الكامنة في صميم نزعتنا إلى توليد الأفكار الدينية وقبولها وتعليق الإلحاد. وكما أن الحكايات الخرافية قريبة كفايةً من الواقع ليصدقها الأطفال، تتضمن البنية الأساسية لجميع الأديان تحريفاً طفيفاً في بعض الخصائص المادية أو البيولوجية أو السيكولوجية لشيء أساسي يبقى فيما عدا ذلك على حاله، ومألفاً بيسراً.

وبفضل العوالم طفيفة المخالفة للبديهة، تبقى الخوارق متصلة دائمًا بالعالم العادي واليومية. لا تجعلها هذه الناحية راسخة في الذاكرة فحسب، ولكن الأهم أنها تسمح لها أيضًا بالتخفيض من المشاكل الإنسانية الوجودية الأساسية التي يصعب التعامل معها بعقلانية، مثل الموت.

عبد المصريون القدماء الإلهة القطة باستيت. ولم يكن هيئًا الانتقال من مخلوقات ملساء تغفو تحت أشعة الشمس نهارًا وتطهر بكفاءة صوامع الحبوب من القوارض والزواحف ليلاً إلى إلهة تسافر عبر السماء برفقة إله الشمس رع، وتحمي البشر من الأمراض المعدية والأرواح الشريرة، وتحارب عدو رع اللدود، الثعبان أبيب. تظل باستيت، في جوهرها، قطة تبكي القوارض الحاملة للأمراض والزواحف السامة بعيدة.

قد يكون هذا التحرير مخالف أكثر للبديهة، لكن يتจำก الباقي في الواقع. فقد حملت العذراء مريم بيسموع وبقيت عذراء، لكن ظل كل شيء آخر يتعلق بالأئنة الشابة والأمومة على حاله.

يوجد الإله اليهودي-المسيحي مادياً في كل مكان. فهو يعرف أفكاره. ويعرف ما إذا كنت تقليًا أم شقيًا في ذهني. لكن يظل كل شيء آخر متعلق بالإله ببساطة. فهو فيما عادا ذلك مجرد رجل، يظل فيه كل ما تعرفه عن الرجال على حاله. إذ يمكن أن يكون الله متوجهًا وقليل الصبر ومنتقم، وزميلًا عادياً في معظم الأحوال.

نحن نملأ الفراغات، ولا نلاحظها حتى، ناهيك بالتفكير فيها.

تخصص الديانات دائمًا قدرات بشرية دنيوية بسيطة للآلهة. يؤمن المسيحيون أن يسوع كان رجلاً وإنما. توجد في الإله جميع الصفات البشرية الطبيعية، وترتبط به وفقاً لهذه الأبعاد. نحن لا ندرك هذا أبداً ما لم نفكر فيه فعليًا ونلتقط هذه التناقضات مثل الحاجة إلى الصلاة إلى قارئ الأفكار. يفترض أن الآلهة تدرك وتشعر وتتصرف كالبشر العاديين، وتتصرف كأفضل وأسوأ من فينا. هذه الافتراضات العملياتية الأساسية حول الآلهة موجودة دائمًا، ومندمجة كالطوب في جدار أي أساس.

لماذا تجب على الناس الصلاة؟ إن كان إلهاً يقرأ أفكارنا ويعرفها، فلماذا نحتاج إلى التحدث إليه؟ يجيب الإنجيل على هذا السؤال: الله لا يسمعنا إلا إذا طلبنا منه ذلك. ونعود إلى تبرير الدين.

هل نخدع أنفسنا؟

خداع النفس

إن خدعاً أنفسنا، فيمكننا خداع الآخرين بسهولة. قد يعتقد السياسيون الطموحون حقاً أنهم يترشحون للمناصب من أجل ترويج قضية معينة. في الواقع، يمكنهم إخفاء طموحاتهم وتوقعهم للسلطة والمكانة حتى عن أنفسهم. توضح مسرحية آرثر ميلر المؤثرة لهم أبنائي لعام 1947، المستندة إلى قصة حقيقة، قوة خداع النفس. في المسرحية، يشحن رجل يدير مصنعاً حربياً معدات معطوبة عمداً، ما يؤدي إلى وفاة واحد وعشرين طياراً. ولأكثر من ثلاث سنوات، يخدع نفسه والآخرين، ملقياً اللوم على شريكه المسجون. وعند ظهور

الحقيقة، يدعى الرجل أنه فعل ذلك من أجل عائلته، وللحفاظ على تشغيل المصنع، وصدق ذلك تماماً. تدور المسرحية إلى حد كبير حول كيفية اكتشاف خداعه لنفسه تدريجياً، واضطراره إلى مواجهة الحقيقة.

إن هذه القدرة البشرية على خداع النفس باللغة الأهمية للاعتقاد الديني. ولو تمكّن المؤمنين العديدين من رؤية عقولهم بشكل أوضح، سيدركون أن خداع النفس يلعب دوراً في قبولهم للإيمان.

ربما ليس هناك سوى ملحدون في الخنادق. لو كان المؤمنون يصدّقون حقاً تماماً وجود الله حامي، فلماذا يغوصون في الخندق لحماية أنفسهم من الرصاص الطائش؟ لأنه يوجد جزء من أدمنتهم يعرف تمام المعرفة أنهم إن لم يحموا أنفسهم، فلن يميز الرصاص بين من يدعون الإيمان ومن يرفضونه. قد يقولون ويعتقدون أنهم يؤمنون، لكن تكشف أفعالهم الغريزية كذبهم.

لماذا يشتري المؤمنون ضماناً صحيّاً؟ ضماناً منزليّاً؟ يعيش معظم الناس حياتهم وكأنه الله غير موجود. نتوقف عند الإشارات الحمراء، ونضع أطفالنا في مقاعد السيارة المخصصة لهم، ونتصرف بمسؤولية لحماية سلامتنا وسلامة من نحبهم. ولنتأمل ملصق السيارة القائل، «تحذير: في حالة الاختطاف (عند ظهور المسيح)، ستكون هذه السيارة بلا سائق!» حتى هنا، يحذر السائق السائقين الآخرين. فلو كان الشخص متدينًا، فهو ملحد بالله الآخرين والله الماضي. كما أنه سيعيش في جميع الأحوال تقريباً كملحد بالنسبة إلى الله المعبد.

نتوقع أن يعيش الآخرون كملحدين أيضًا. نريدهم أن يتوقفوا عند الإشارات الحمراء وألا يفترضوا أننا نقود في ظل الحماية الإلهية. لقد اعتدنا في الغرب على الم الدينين الذين لا يؤمنون فعلاً، وحقاً، وتماماً بما يزعمون إنهم يؤمنون وندهش عندما نواجهه، كما في أحداث 11 سبتمبر، أشخاصاً يؤمنون بدينهم حقاً ويحولون معتقداتهم إلى ممارسات قاتلة.

المبالغة في التحديد

تماماً مثل الزوج الذي اعتقاد أن زوجته المضجرة كانت تغازله، نملك عقولاً منحازة بشدة إلى المبالغة في التحديد، وخاصة التحديد أو الغاية البشرية. بالطبع، بالكاد ندرك ذلك. ويظهر هذا عند قولنا، «لقد أمطرت اليوم لأنني لم أحضر مظلي». وحتى الملحدين قد يزعمون أن حدثاً وقع في حياتهم «غاية ما».

وهذا التحيز للمبالغة في الغاية والتحديد حيث لا وجود لهما يكون أكثر وضوحاً عند الأطفال. فإذا سألت طفلاً عن سبب وجود البحيرات، يحتمل أن تجاوبك: لكي تسبح الأسماك فيها. ما فائدة الطيور؟ لتنغمس. ما هي الصخور؟ لكي تحك الحيوانات نفسها بها. واعتقد أن ملايين الآباء قد وصلوا إلى نقطة الانهيار تقريباً عندما سألهم طفلهم ذو ثلات سنوات، وللمرة المليار، «لماذا؟» يوصف الأطفال بأنهم «مؤمنون بالفطرة». إذ يُظهر الأطفال ما يسمى الغائية مشوّشة، وهي تفضيل أساسي لفهم العالم من حيث الغاية. وتساهم فيما نعرفه اليوم عن معتقدات الأطفال. فالילדים سيتبينون بشكل عفوي مفهوم الله

والعالم المخلوق دون تدخل الكبار. في الصميم، ولدنا جميعاً خلقين. فالإلهاد يتطلب جهداً.

حتى البالغين بعيدون كل البعد عن نماذج العقلانية. نحن أيضاً بحاجة لرؤية الغاية. في الواقع، إن الحاجة إلى رؤية الغاية متأصلة في تعريف الدين.

كما يعرف مثلاً في موقع [Dictionary.com](https://www.dictionary.com) الذي يعرف الدين أولاً بأنه «مجموعة من المعتقدات المتعلقة بطبيعة الكون وسببه وغايته، خاصةً عندما يعتبر مخلوق بواسطة فاعل أو فواعل فوق بشرية، ويتضمن عادةً الاحتفالات التعبدية والطقوسية».

يعتقد حَرفيو الإنجيل أن الحيوانات موجودة لغاية وحيدة هي خدمة البشرية. تلك الحيوانات غير البشرية قد لعبت دوراً خاصاً بها في تطور جنسنا البشري ونظام كوكبنا البيئي، لا يضع الحرفيون هذا الأمر في حسابهم.

تتجلى مشكلتنا المتعلقة بالغاية في مقاومتنا لتقبل الانتقاء الطبيعي وصعوبة فهمنا له. لأننا نتوقع أن «يحدث كل شيء لسبب معين»، يصعب علينا أن نجعل عقولنا تدرك كيفية تطور الحياة. ويصعب علينا أيضاً قبول حدوث طفرات تدريجية وعشوانية للجينات والبقاء غير العشوائي للأجسام التي تحتويها. إن تحيزنا للمبالغة في الغاية وعجزنا الأساسي عن فهم الآليات العميقية غير الهدافة لتطور الحياة يمكن أن يجعل الاعتقاد الديني هو السبيل الأسهل. لدينا حاجة فطرية للنظام في حياتنا، والدين يشبعها.

الفصل السابع

لتكن مشيئتك

الالتزام بشرع الله (أو الآلهة)

هذه الخصال الاجتماعية، التي لا يجامل أحد في أهميتها للحيوانات الدنيا، اكتسبها أسلاف الإنسان -لا شك- بطريقة مشابهة، هي الاصطفاء الطبيعي، مؤيداً بالعارة الموروثة.

- تشارلز داروين

إننا مراجعون للسلطة أكثر مما نحب أن نعرف. ظهر هذا الأمر في مجموعة من التجارب الشهيرة التي أجرتها ستانلي ميلغرام، عالم النفس في جامعة ييل، بدءاً من عام 1961. أظهر ميلغرام أن نحو ثلثي الأفراد العاديين سيستمرّون في إعطاء صدمات كهربائية لـ«متعلم» لا حول له ولا قوة، إذا أمرتهم سلطة بذلك، وإن كانوا لا يريدون فعله هم. إذا لم تكن عارفاً بتجارب ميلغرام، فخذ حصة من وقتك وطالعها على الإنترن特. ستتصدمك التجارب الأصلية والتجارب التي لحقتها وأكّدتها.

إن مشاعر المهابة والاحترام جزء من تكويننا، صُممّت لتحرّك تصرفاتنا أمام أصحاب السلطة والمكانة الرفيعة في التراتبية المجتمعية. هذه المشاعر أهداف سهلة للأديان. أكرم أباك وأمك. مجّد وأطع الإله أو الآلهة التي يأمرك بها دينك.

الأخلاق

جاء في الجزء الثاني من تعريف موقع Dictionary.com للدين: «ويحوي عادةً نظاماً أخلاقياً يحكم الأعمال الإنسانية». من الناس من يقول إن الإنسان لولا الدين لكان عديم الأخلاق فوضوياً، غير ملتزم بأي قانون. لكنهم ببساطة مخطئون.

نحن منذ ولادتنا حيوانات أخلاقية. لا نحتاج إلى الدين ليمنعنا من التوحش الهمجي، كما تود بعض الأديان أن تقنعنا. لو لم يكن عند أسلافنا مفاهيم عن الصواب والخطأ، مهما اختلفت هذه المفاهيم بين جماعاتهم، لما استطاعوا البقاء في هذه الجماعات.

بالإضافة إلى وجود الخلايا العصبية المرآتية، التي سنتناقشها في الفصل التاسع، ترفض أدلة أخرى فكرة أن الأخلاق سلوك متعلم فقط، ليس له جوانب موجودة منذ الولادة.

إن العنجوية الإنسانية تجعلنا نؤمن أننا الكائنات الأخلاقية الوحيدة. في الحقيقة، تظهر الحيوانات الأخرى الرأفة والرحمة والحزن والراحة والدعم والغفران والثقة والمعاملة بالمثل، وعندما مفهوم عن العدل، والانتقام، والازدراء، وغير ذلك كثير. عند الإقرار بهذه الخصال، كثيراً ما يُقلل من شأنها فتجعل «لبنات بناء» للأخلاق الإنسانية. ولكن يجب أن ننظر إلى هذه الأخلاق على أنها تركيب الأنظمة الأخلاقية المتطورة الذي يحتاجه سلوك النوع الحيواني الذي يملكه.

إن تطور التصرفات الأخلاقية موافق لتطور الاجتماعية. والتعقيد الاجتماعي يبني تعقيداً أخلاقياً. وجنسنا البشري اجتماعي جدّاً.

في بحثه الرائد، وجد بروفسور علم النفس في جامعة ييل بول بلوم وفريقه أن الأطفال أبناء ثلاثة أشهر يملكون حسّاً فطرياً عن الصواب والخطأ، والخير والشر، والعدل والظلم.

عندما عُرض على هؤلاء الأطفال دمية تصعد جبلاً، وتساعدها دمية أخرى مرّة، وتعرقلها مرّة، اتجه الأطفال نحو الدمية المساعدة وابعدوا عن الدمية المعرقلة. كانوا قادرين على المحاكمة الاجتماعية التقديرية، وهي بمعنى من المعاني استجابة أخلاقية. لاحظ بلوم أن «تعاون الناس عادةً نافع لهم... أي إن تقدير لطافة ووقاية الأفراد الآخرين أمر تكيري». كل هذا يدفعنا إلى النظر في فطريّة بعض المفاهيم الأخلاقية على الأقل».

المثال الذي ذكرناه في الفصل الخامس عن طفل صغير يلعب بكرة على الأرض، مأخوذ من عمل مايكل توماسيلو، عالم النفس التنموي الذي يشارك في إدارة معهد ماكس بلانك للأنثروبولوجيا التطورية في ليبيزينغ، ألمانيا. أنتج توماسيلو وزملاؤه ثروة من الأبحاث التي تدل على قدرات فطرية مبكرة جدّاً في الأطفال. يرى توماسيلو أننا مولودون على الإيثار ولكننا نتعلم بعد ذلك المنفعة الشخصية. تُظهر مجموعة توماسيلو قدرة الأطفال على تقدير الظروف و اختيار تصرفات مساعدٍ معتقد، مليئة بحس واضح لمفهوم العدل. يؤكّد هذه الفكرة

فيديو فيلكس وارنكن، الذي يظهر فيه أطفال يبتعدون عن أمهاتهم ليساعدوا رجلاً طويلاً على فتح خزانة.

إن أنظمتنا الأخلاقية الفطرية مثل نحونا الفطري، كلنا نستطيع تعلم لغة، ونتعلم لغة ثقافتنا. كلنا عندنا أنظمة أخلاقية، ونتعلم الأنظمة الأخلاقية لثقافتنا. نستبطنها، وتلوّن هذه القيم استجاباتنا الأخلاقية الحدسية والتلقائية والعاطفية. نحن نعرف الصواب والخطأ حتى من دون الدين.

يبدو أن نظامنا الأخلاقي نظام ثنوّي، فيه عملية تلقائية لا واعية، وعملية لاحقة واعية نعرف أماكن نشاطها في الدماغ.

يبدو أن عملياتنا الأخلاقية العاطفية موجودة في القشرة المخية الجبهية، أسفل القسم الأوسط من أدمغتنا. هذه الأماكن تراقب البيئة باستمرار، وخصوصاً البيئة الاجتماعية ومكاننا منها. عندما تتغير بعض الأشياء في البيئة، نستجيب تلقائياً. إذا كان التغيير إيجابياً، نقترب، إذا كان سلبياً، نبتعد. إنها عملية تقديرية عاطفية فورية.

تحت مناطق كثيرة في أدمغتنا استجاباتنا الأخلاقية. أولها الأذى والظلم، إذا رأينا أي اعتداء في هذين المجالين، نستجيب مباشرة. يستجيب جميع الناس بعض المؤثرات تلقائياً، وإن كانت الاختلافات الثقافية المتعلقة تحدد شدة استجاباتنا وطريقتها.

نعم، نحن أطوع للسلطة مما يتوقع أي واحد منّا، كما أثبتت تجارب ميلغرام، ولكن عندنا مشاعر أخلاقية تساعدننا على مناقشة علاقتنا مع السلطة، وتساعدنا

على معرفة الأصحاب الذين نوالיהם. الذين نرى أفعالهم خيراً، وندافع عنهم. وعلى معرفة الآغير الذين يجب أن نحذر منهم، وأن نشك فيهم ولا نثق بهم حتى يثبتوا استحقاقهم للثقة. لقد كانت الأديان آلية جاهزة لمعرفة الآغير المستحقين للموت.

يبدو أن النقاء أيضاً مجال من مجالات مشاعرنا الأخلاقية التلقائية. ولعل هذا آتٍ من قرفنا من اللحم الفاسد، الذي يحمينا من الوباء، ولكن هذا القرف قد يمتد إلى العلاقات الاجتماعية. لقد أصبح القرف شعوراً أخلاقياً قوياً، وصار مما يدعى به النقد والشجب. يتوجه شعور القرف عادة تجاه المعدودين من الآغير. أما شعور النقاء فنشعر به مع الناس والأماكن والأشياء التي توصف بالقداسة، وننزعج عندما يُعتدى على الشعائر أو الأشياء المقدسة أو «تلوث».

إن مشاعرنا الأخلاقية الوعية هي عمليات توسيع عقلية تتيح لنا تفسير استجاباتنا العاطفية التلقائية. لفهم هذا، قارن الاستجابات الأخلاقية بالأحكام الجمالية. عندما ترى لوحة تعجبك، تحرّك بطريقة ما. فإذا سُئلت لماذا أعجبتك، بدأت باختلاق الأسباب، ولكن هذه الأسباب ليست إلا عمليات توسيع عقلية قد تتعلق أو لا تتعلق بشعورك الداخلي الأول.

استجاباتنا الأخلاقية التلقائية مثل هذه الأحكام الجمالية، لذا نبني حججاً واعيةً لتفسيرها، كالمحامين المفوهين. هذا الجزء «المحامي» في أدمغتنا، الذي نجده في القشرة الدماغية، يمنحك أسباباً لأي استجابة أخلاقية ويبني لنا حججاً لها. قد

يمحو هذا الجزء من عقلنا استجابتنا الأخلاقية، ونجد شخصاً نكرهه «بالغريزة»
برئيًّا.

فإذا كان هذا القدر الكبير من عملياتنا الأخلاقية غير واعٍ، فإن الدين يسهل
حياتنا عندما يعطينا أسبابًا واعية للمشاعر التي تأتي من الفراغ –على ما يبدو–
ولا تعالج في الوعي.

من الممكن جدًّا أن يكون المرء غير متدين ولكنه عالي الأخلاق. كما أنه إذا اتبعت
الكتاب المقدس بالحرف، فقد تبيع ابنك المغرورة للعبودية (سفر التكوين
21:7). وفي الأعمال الدينية الأخرى أحكام بنفس الغرابة. إن الكتب المقدسة
القديمة تبدو مليئة بالنصائح الأخلاقية التي ليست من الأخلاق في شيء عند
المستمع الحديث. كلما قلَّ التزامك بالكتاب المقدس، زاد اعتمادك على حدسك
الأخلاقي الأساسي، وزادت أخلاقك.

الأخلاق الأصيلة هي فعل الصواب وإنْ أمرَ الإنسان بفعل غيره، أما الأخلاق
الدينية فهي فعل ما يُؤمر به الإنسان. إن قوة الدين تعطينا أسبابًا قوية لفعل ما
نؤمر به. ويتتيح لنا الدين أن نكون في مجموعة سوف تجني ثواباً أبدِيًّا، وتحمينا
من الاحتراق في النار إلى الأبد.

سيقول لك الذين تركوا الدين أيضاً إن الحياة مع الاعتقاد الديني أسهل بكثير من
الحياة من دونه، لأنها تتطلب جهداً ذهنيًّا أقل بكثير عند اتخاذ القرارات.

علم نفس القرابة

نتيجة للتطور، يولد الإنسان حاملاً لآليات عقلية ذكية تساعده على معرفة القريب والتعامل معه. يظهر هذا في المثل القديم، «أنا على أخي، وأنا وأخي على ابن عمي، وأنا وأخي وابن عمي على الغريب».

مشاعر القرابة هذه أساسية لبقاء ولبقاء نسخ من جيناتنا موجودة في قرابتنا. لقد تطورنا لنفضل هذه الجينات على جينات الغرباء.

تثير الأديان وتستغل مشاعر القرابة. فالراهبات «أخوات» أو حتى «أمهات»، والكهنة «آباء» والرهبان «إخوة»، والبابا «أب مقدس»، والدين نفسه يسمى «كنيسة الأم المقدسة».

إن استغلال مشاعر القرابة أساسى في تجنيد وتدريب الانتحاريين الذكور اليوم والانتماء إلى المجموعة وإلهها. تُحرّف معاني القرابة. ينشئ المجندون والمدربون أصحاب الحضور خلايا من القرابة التخيلية، والأخويات الزائفة التي يغضب أعضاؤها لسوء معاملة إخوتهم وأخواتهم المسلمين، أخويات مستقلة عن القرابة الحقيقية. إن إغراء تفجير النفس والشهادة لا يقتصر على الحوريات السماويات المتعددات، بل ويشمل الفرصة لإعطاء قريب من الأقرباء تذكرة مختومة إلى الجنة.

في 18 يونيو 2010، أوضح تقرير من أسوشيوشن برس استعمال الدين للقرابة: «متمرد متعلق بالقاعدة يقتل أباً وهو نائم في سريره لرفضه ترك عمله في الترجمة للجيش الأمريكي». في هذه الحالة، نجد أن قوة «القرابة» الدينية المخلقة كانت أقوى من القرابة الحقيقية، ومحظى مشاعر القرابة الفردية، بل

ومحت التحرير الثقافي العام لقتل الأب. نرى هنا كيف يمكن أن يصبح الدين خطيراً جدًا.

إن أكبر خسارة في حياة المدنيين الأمريكيين في كارثة غير طبيعية قبل أحداث 11 سبتمبر كانت بسبب الدين، عندما مات 918 إنساناً في جونستاون - منهم 909 انتحاراً، ومنهم من قتل أولاده ثم شرب شراباً مخلوطاً بالسيانيد (سمّ). كان مؤسس هذا المجتمع جيم جونس، «الأب» الكاريزمي لعبد الناس، وهو دين أسسه هو.

لماذا ائمن 909 من الناس رجلاً مجنوناً على حياتهم؟

الإشارة المكلفة

كيف تثق من يعدك بفعل شيء؟ تزيد ثقتك عندما يكون الوعد مقتربناً بإشارة صادقة صعبة التزييف، إشارة مكلفة تدل على الالتزام، كدفع ألف دولار عربوناً مقدماً مثلًا، أو خاتم فيه الملاسة، أو إيذاء الذات في سبيل إله، أو انتزاع النفس والجماعة أو الأسرة لإنشاء بلدة جديدة تماماً في أمريكا الوسطى.

إن الإشارات الصادقة المكلفة صعبة التزييف جزء من علاقاتنا. تستعمل الأديان هذه الإشارات استعمالاً لطيفاً. إذ تدعونا إلى الالتزام بها والتضحية بدمنا وعرقنا وكدحنا ودموعنا وأجسامنا وثرواتنا، وحتى أقربائنا.

كيف أحكم على التزامك بالدين وأكون أخاً لك فيه؟ أشاهد مشاركتك المكلفة صعبة التزييف في شعائر الدين - التي تكون عادةً طويلة ورتيبة ومزعجة ومكلفة مالياً وجسمياً.

الفصل الثامن

حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي

تسخير كيمياء الدماغ بالشعائر

إن تشكّل لغات مختلفة وتشكل أنواع مختلفة، عمليتان متوازيتان على نحو غريب، إذ تدل الأدلة على أنهما جرياً تدريجياً.

– تشارلز داروين

الشعائر الدينية، كالأفكار الدينية والمعتقدات الدينية، هي آثار جانبية لآليات ذهنية صُمِّمت لأهداف أخرى.

تحافظ الشعائر على المعتقدات وتنقلها عبر الزمان والمكان. لقد رأينا كيف أن عقل الإنسان ضعيف أمام إنشاء وقبول الأفكار الدينية والإيمان بها. لو توقف الأمر هنا، لكان الاعتقاد بالمعتقدات الدينية اعتقاداً خفيّاً. ولكن، باستعمال مواد كيميائية في الدماغ تثير التجارب العاطفية الشديدة وتعطينا مشاعر منها تقدير الذات والمتعة والخوف والحفز وتسكين الألم والتعلق، تصبح الشعيرة كُلّاً أقوى بكثير من مجموع أجزائها. إن الطبيعة الكلية للشعائر تجهّز عقل الفرد للإيمان وترمييه في حلقة مستمرة من التأكيد المتبادل، وهو ما يجمع القوى الوعية واللاوعية جمعاً مضطرباً.

بمعنى من المعاني، هناك دين حقيقي واحد فقط، أنشأه أسلافنا الصيادون الجمّاعون، أجداد نوعنا الإنسان العاقل، في إفريقيا، بين 50 ألف عام خلا و70

ألف عام خلا. نستطيع الاطلاع على ذلك الزمن الغابر، الذي أنشئت فيه الشعائر، إذا اطلعنا على ثلات جماعات باقية إلى اليوم من الصادة الجمّاعين.

أولى هذه الجماعات الكونغ سان الإفريقيون، الذين عاشوا معيشة الصيّادين الجماعين إلى وقت قريب. الثانية هي قبيلة عاشت منعزلة عن العالم إلى القرن العشرين في جزر أندامان في خليج البنغال، يعتقد أن أعضاء هذه الجماعة منحدرون من أول فئة من الناس تركت إفريقيا، وسافرت في أرجاء شبه الجزيرة العربية، ثم إلى الهند إلى أن وصلت إلى إندونيسيا وأستراليا. الثالثة هي سكان أستراليا الأصليون، الذين أتوا من إفريقيا في موجة واحدة، حسب ما يدل عليه الدليل الجنيني.

لكل هذه القبائل أديان مذهلة في تشابهها. كل هذه الأديان قائمة على الغناء والرقص والنشوة (أو الغشية). لم؟ تبين أن هذه الأنشطة هي التي تسخر أقوى المواد الكيميائية في أدمغتنا، التي تؤثر في المتعة والخوف والحب والثقة وتقدير الذات والتعلق. كان الدين الذي اكتشفه أسلافنا قويًا جدًا إلى درجة أنك إذا نظرت في جميع الأديان على الكوكب اليوم، وجدت أصداءً له. كما أننا جميًعا أبناء وبنات قبيلة صغيرة من الصيادين الجماعيين الذين جالوا إفريقيا قبل أقل من مئة ألف عام، فكذلك كل أدياننا مشتقة من اكتشاف هذه القبيلة لقوة الغناء والرقص والغشية.

كيميات الدماغ في الشعائر

تتواصل الخلايا في الدماغ فيما بينها بالنواقل العصبية، التي تتيح انتقال الإشارات من خلية إلى خلية.

في كل حيوان ذي جهاز عصبي مركزي مادة السيروتونين، وهي أقدم النواقل العصبية التي تسمى أحاديات الأمين. تسكن عصبونات السيروتونين في جذع الدماغ وترسل الإسقاطات عبر الدماغ لمجموعة من الأسباب، منها الحركات الإجمالية والتكرارية. ولكن الأهم هنا أن السيروتونين أيضًا ينظم تقديرنا لذاتنا حسب الراجع المجتمعي.

إذا طُردت من كل أعمالك، ستختفي مستويات السيروتونين وينخفض نشاطه عندي، وستؤدي خسارة المكانة الاجتماعية غالباً إلى الاكتئاب والزنق والاندفاع.

بالمقابل، إذا أصبحت أنت، أيّها القارئ، رئيس الولايات المتحدة، سواء أحببت هذه الوظيفة أم لم تحبها، سترتفع مستويات السيروتونين ويرتفع نشاطه في دماغك، وستشعر بعلو منزلتك. ترفع مضادات الاكتئاب الحديثة، ومنها بروزاك، نشاط السيروتونين.

وأنت تقرأ هذا الكتاب جالساً هادئاً، تجري عصبونات السيروتونين في جذع دماغك ثلاث دورات كل دقيقة. فإذا كنت واقفاً أو في حركة، فإنها تجري خمس دورات في الثانية. عندما تتمرن تمرّنا شديداً، تزيد مستويات السيروتونين عندك.

من النوائل العصبية أحادية الأمين الأخرى، الدوبامين، المشهور نوعاً ما، والمرتبط عموماً بالمتعة والملذّة. تثير منطقة غنية بالدوبامين في أدمغتنا تسمى النواة المتكئة، تثير المتعة ردّاً على بعض المؤثرات، منها الطعام والجماع والمخدرات. هذا هو الذي يؤدي إلى استجابة «افعلها مرة أخرى» عند تناول الطعام الجاهز.

ولكن الدوبامين ليس مجرد مادة كيماوية للمتعة. للدوبامين علاقة بوظائف العضلات، والمهارات الحركية، والتصرفات الاندفاعية التكرارية، والمثابرة، والتكرار الإرادي لاستجابة معينة. لقد استخدم عالم الأعصاب أوليفر ساكس مادة شبيهة بالدوبامين لعلاج مرضى شذوذ الحركة، وقد سجل هذه الظاهرة في كتابه، *يقظات*، الصادر عام 1973، الذي صُور له فلم خيالي عام 1990 يحمل الاسم نفسه. يساعد الدوبامين أيضاً على تمييز الأشياء المهمة وإبرازها، وعلى توقع المكافأة.

آخر النوائل العصبية الأحادية الأمين: الإبنفررين والنورإبنفررين، المعروfan بالأدرينالين والنورأدرينالين. يزيد الأدرينالين خفقان القلب، و يجعلنا قلقين، ويركّز انتباها، ويؤدي إلى التعرق. يقدم الأدرينالين دفعات مؤقتة من القوة، تتيح لنا أن نهرب أو نقاتل، وقد يتاح أحياناً حركات جسمية كانت لتكون مستحيلة، كأن ترفع أم سِيارة لتنقذ طفلها.

للأكسيدوسين أهمية خاصة في الشعائر الدينية لما له من خصائص اجتماعية. عند الولادة، يُطلق دماغ الأم جرعة ضخمة من الأكسيدوسين استجابة

للتوسع في عنق الرحم والمهبل. تؤدي الرضاعة إلى إطلاق الحليب، وهو ما يثير مزيداً من الأكسيتوسين. يخفف الأكسيتوسين اهتمامات الأم الأخرى ويساعدها أن تركز على طفلها وتلتزم به وتعلق به. يزداد الأكسيتوسين أيضاً عند الإثارة الجنسية، وتُطلق دفعات حسنة منه عند النشوة.

يؤدي الأكسيتوسين إلى الثقة والحب والكرم والترابط في كلا الجنسين. يقلل الأكسيتوسين الخوف وله أثر إيجابي على كل مشاعرنا المجتمعية. لو كانت الأديان المبكرة قادرة على استخدام الأكسيتوسين لاستطاعت التسلل إلى أخطر مشاعر الإنسان وأقواها وأجملها.

أما الإندورفينات، وهي آخر المواد الكيميائية العصبية المهمة في موضوع الدين، فهي أفيوناتنا الداخلية، وكلمة إندورفين نفسها آتية من مصطلح «المورفين الداخلي». الوظيفة الرئيسية للإندورفين هي منع الألم عند حدوث إصابة، وتُطلق الإندورفينات عند التدريب والإثارة والألم واللمس والضحك وسماع الموسيقا والنشوة والتعرض للفيلفة الحارة وفي المشيمة.

إذا وضع عَدَاء تحت فاحص دماغي بعد جولة عدو طويلة، ستتضيء مستقبلات الإندورفين. إن زيادة الإندورفين هي التي تؤدي إلى «نشوة العدائيين»، وتحدث بعد التدريب الشديد لسبب.

عند أسلافنا، كان هدف إطلاق جرعة الإندورفين هذه هو البقاء. والتدريب الشديد بالعموم يشير إلى خطر كبير بالإصابة، لذلك تتجهز الأدمغة لهذه الإصابة، وتقدم مادة كيميائية مسكنة للألم تتيح في الوقت نفسه الشعور

بالتحكم والقوة، على الأقل إلى أن تزول التهديدات. لذلك يستطيع الجنود الاحتياطيون الذين يُستدعون في عطل نهاية الأسبوع أن يستمروا في نشاطهم حتى بعد مجاوزة عتبة الألم –على الأقل إلى اليوم التالي– كأسلافهم، إلى أن يصبحوا أمنين من التهديد المباشر.

تيسّر الإندورفينات أيضًا الروابط الاجتماعية وتزيد إطلاق الدوبامين. هذه الدورة فريدة في النواقل العصبية. فمع أن لكل ناقل وظيفة خاصة، فهذه الوظائف متداخلة ويثير بعضها بعضاً، لتنتج أمزجة فريدة يمكن استغلالها لأهداف محددة—وهنا تأتي الشعائر الدينية.

لم يكن أسلافنا عالمين بالكيمياء العصبية، ولكنهم بطريقة ما استطاعوا معرفة أمزجة من النشاطات التي تستطيع إطلاق وتعزيز السيروتونين والدوبامين والإبنفرين والنورإبنفرين والأكسسيتوسين وغيرها من الإندورفينات، لتنتج أنشطة دماغية خاصة بهذه الأمزجة. وهذا الأمر أساسى لفهم استمرار الشعائر وجودها في جميع الحضارات، فحرفيًا، لا نرى هذه العمومية في شيء سوى الشعائر.

إن الكلمة الإنكليزية الدالة على الدين «Religion» ترجع على الراجح إلى الكلمة اللاتинية «*religare*»، التي تعني «الربط، أو العَقد». لقد استحوذت هذه الشعائر التي ابتكرها أسلافنا على كيمياء الدماغ بطريقة مفردة فريدة في الإنسان، استطاعت أن تجمع الناس وتربط بينهم وتسهّل العلاقات الاجتماعية.

ليستطيع أسلافنا البقاء في بيئتهم الشديدة، كونوا جماعات، وهو ما أدى إلى نشوء مجموعة جديدة من المشكلات. تظهر في الجماعات اختلافات وخلافات بين الأفراد، تستطيع أن تؤدي إلى انتهاء الجماعة إن لم تُحلّ. ولكن في نوع اجتماعي كنوعنا، لم تكن الأناركية خياراً تطوريّاً مقبولاً. إذا تصرّف أي عضو بطريقة معادية لبقاء المجموعة، وأدّبه أحد -فرد أو مجموعة- فإن المؤدب سيكون في خطر الانتقام من طرف أقرباء المعدي وأصدقائه. ولكن قوّيَ خفيّة -أسلافاً ميتين أو آلهة- استطاعت أن تحدد العقوبة وتفرض الصفة الجماعية بسهولة وبحذر مستمر.

تدعم الأبحاث الحديثة هذه الفرضية. في دراسة عن آثار الدين على العقوبات، أظهر ريان مكاي وزملاؤه في زيورخ، سويسرا، وإنكلترا، أن المشاركين الذين لُقّنوا بعض الأفكار الدينية كانوا يحكمون على أصحاب السلوكات الظالمة بعقوبات أشدّ من العقوبات التي يقترحها غيرهم. لُقّن المشاركون لا شعورياً بأفكار دينية، وأفكار علمانية عن العقوبة، وأفكار محايضة. زاد الدين من العقوبة المكلفة، أكثر من المجموعتين الثانية. تعمل هنا آلية زاد الدين من العقوبة المكلفة، أكثر من المجموعتين الثانية. تعمل هنا آلية المراقب فوق الطبيعة». يعقوب الم الدينون من المشاركين الأولى هي آلية «المراقب فوق الطبيعة». يعقوب الم الدينون من المشاركين التصرفات غير العادلة لأنهم يشعرون أن عدم العقوبة سيؤدي إلى إغضاب أو إحباط المراقب فوق الطبيعة. والآلية الثانية هي التفعيل الديني لأنماط ثقافية عن العدل وفرضه.

لذا، كان إنشاء الآلهة أو الأسلاف العظام أمرًا معقولًا، وإن كان بطريقة لا واعية، وكان إنشاء الشعائر للتواصل مع هذه القوى الخفية الخطوة المنطقية التالية. ولكن إذا كانت الشعيرة تستدعي قوى خفية قوية، فكيف آمن أسلافنا بهذه الآلهة الخفية أصلًا؟ وكيف قبلوا أن أسلافهم الميتين لم يزل في أيديهم سلطة عليهم؟

نرجع هنا إلى اللبنات المؤسسة للإيمان—ملاحظة قوة أكبر من أنفسنا، والشعور بالقدرة على التواصل مع هذه القوة، وهكذا. في ذلك الوقت، كما اليوم، كان الإله منتجًا للذهن—أو، إذا أردت الدقة، أثراً جانبيًا للآليات الإدراكية للعقل الإنساني.

دور الأحلام في الشعائر—والغشية

الراجح أن أسلافنا ابتكرموا الآلهة من أحلامهم. اليوم، نعلم أن الأحلام هي منتجات أدمنغتنا، وأنها قد تلهمنا في حياتنا العاطفية، ونقبل أن هذه الأحلام قد تكون معقولة أو غير معقولة. قال فرويد إن الأحلام «طريق ملكي إلى اللاوعي». ولكن حسب علمنا، لم يكن في مجتمعات أسلافنا الغابرين معالجون نفسيون، وحتى أفضل العلماء والمعالجين اليوم لا يستطيعون تفسير كل ما نراه في الأحلام. ولكن أسلافنا حلموا، وعندنا من الأسباب ما يدلنا على أن أحلامهم كانت قوية على نحو فريد.

بدءًا من القرن الخامس قبل الميلاد، بنى الإغريق، وهم أصحاب حضارة حديثة ومتقدمة نسبيًا، مراكز استشفاء، هي معابد مكرسة لأسقلابيوس، إله

الشفاء. يذهب المواطنون إلى هذه المعابد ليناموا ويستثيروا أحلاماً بالشعائر والصوم والصلوة، ويستعملون المعلومات التي يرونها في أحلامهم للاستشفاء ويعولون أن الآلهة أظهرت نفسها في الأحلام. كان المصريون القدماء كذلك يرون في الأحلام مصدراً أساسياً للمعلومات الإلهية.

ارجع مزيداً في التقدم البشري، وتخيل صياداً جماعاً نائماً في سهول إفريقيا قبل عشرة آلاف عام، زاره في المنام قريب ميت ولم يفهم شيئاً من ذلك. من المنطقي أن يقبل هذا الصياد بيئة الأحلام الغريبة على أنها واقع مخفى، فربما يوجد عالم آخر مليء بأرواح الأسلاف أصحاب الحكمة الأعلى والقوة الأكبر، أو أنه مليء بالآلهة قد تقدم شيئاً من الهدي.

اجمع هذا مع حس الدهشة في العالم الطبيعي، ومع الإدراك المنفصل، الذي أظهرنا أنه يتاح لنا أن نقبل وجود أشياء خفية، لترى بدايات الآلهة. لن نعرف تماماً كيف ابتكر أسلافنا الغابرون الآلهة الأولى. قد تكون الآلهة ابتكرت تشخيصاً وتفسيراً للقوى الطبيعية كالنار، التي لم تزل ظاهرة في شعائر معظم أديان العالم، في الشموع. تخيل أسلافنا عندما سخروا النار أول مرة. لا بد أن الأمر بدا معجزاً. اجمع إلى هذا التغيرات الشديدة في الجو، والبراكين والشمس والقمر والعجبات الطبيعية الأخرى. كما في كل الظواهر النفسية القوية، لا شك بوجود محددات كثيرة لهذه الآلهة الأولى.

ومع نشأة الآلهة نشأت الرغبة بالتواصل معهم، وببلوغهم عند الحاجة، لا في النوم فقط. كان على أسلافنا -كأحفادهم الإغريق- إذا أرادوا أن يتصلوا

بعالم الأحلام ولا يعتمدو على احتمال أن يروا الآلهة فيه، أن يبنوا «طريقهم الملكي» الخاص. فمن الراجح أنهم تعلموا مبكراً كيف يثيرون غشية، والغشية حالة يقظة من النوم، بالرقص والتطبيل والغناء لساعات أو أيام. كما في الحضارات الأمريكية الأصلية، ربما عزل هؤلاء الأسلاف أنفسهم واختبروا الحرمان الحسي ليشعروا بوجود الآخر، ويشعروا بالتوحد مع الأشياء. قد يفسد الصوم الإدراكات وقد يؤدي إلى الهلوسات. والصوم موجود في معظم الأديان، ربما لآثاره المعززة للبصر. وقد تعلم أسلافنا وهم يتذكرون هذه الشعائر مع الوقت، كيف يعززون تلك النوائل العصبية وينشئون تقنية حيوية للتماسك الجماعي.

ومن الراجح أيضاً أن جهاز اكتشاف العاملية شديد النشاط الذي أشرنا إليه من قبل، الذي من شأنه أن يصف المظاهر أو الأصوات بعاملية إنسانية كانت تشغّله المواد الكيميائية العصبية في الشعائر، ليدفع أسلافنا للإيمان لا بأسلافهم المخفيين فقط بل وبكيانات أخرى شبيهة بالإنسان.

ارتکرت الشعائر المبكرة على أنشطة أو أشياء نعرف اليوم أنها قد تغير كيمياء الدماغ: الموسيقا والغناء والأنشطة التكرارية الإيقاعية، والمشاعر القوية، وقلة النوم. كان كثير من الشعائر مجدها حرفيّاً، إذ يرقص فيه الناس أو يغنوون ليلة كاملة أو أكثر. هذه الأنشطة الكثيفة المطولة تؤدي إلى قمة النشاط في كيميائيات الدماغ.

يظهر أن أسلافنا وجدوا أن الرقص (وربما بعض المواد) يؤدي إلى الغشية وأن الشعائر تتيح ما يبدو أنه وصول إرادي إلى الأشياء المخفية. وكانت هذه الشعائر أيضاً إثباتاً عاماً على وجود عالم آخر، ووجود أرواح خفية فيه. تأمل كيف أن الكلمة «Enthusiasm»، التي تعني الحماسة، مشتقة من الكلمة الإغريقية «enthousiasmos» التي تعني «المجذوب لله».

في الشعيرة، كان التركيز على المجتمع، لا على الفرد، واستطاعت الشعائر أن تنشئ أو تتضمن أخلاقاً أو دروساً مهمة لبقاء الجماعة. استطاعت الشعائر أن تحقق ما عجز الأفراد عنه: استطاعت أن تستحضر عالماً من المخاطر الخفية، لا سيما من الأسلاف الميتين، على أعضاء القبيلة الخارجيين عن الخط.

كانت هذه الشعائر الدينية المبكرة تجري في طقوس العبور عموماً: الولادة، والبلوغ، والزواج، والموت. لاحظ عالم الأنثروبولوجيا رودني نيدهام أن القرع (على الطبول وغيرها) يلعب دوراً مهماً في لحظات التحول في الحياة. لم تزل الشعائر التي تجري عند نقاط التحول في الحياة، ويجري فيها القرع، بارزة في كل حضارة إلى يومنا هذا. لم تزل بقایا من هذا في أخويات الجامعة، حيث يمثل الدخول فيها هذا التراث الطويل من طقوس الدخول المخيفة المؤلمة، والمميتة أحياناً. حتى الرقص العنيف الذي يجري في بعض حفلات الروك يشابه الجنون الشعائري.

كل القبائل الباقيّة التي تتيح لنا النظر في ذلك الزمن الغابر تستعمل الشعائر لتعرف أعضاءها على أسرار القبيلة. قد تكون شعائر الانضمام مؤلمة

ومخيفة، وهو ما يطلق المواد الكيميائية العصبية المرتبطة بهذين الشعورين، والنتيجة هي الارتباط الاجتماعي الذي يقوى القبيلة. تقوّي هذه الشعائر الرجال على الحرب، وتجعلهم مخلصين وتغرس فيهم الشجاعة والالتزام بأعراف القبيلة. يسمى سكان أستراليااليوم ذلك الوقت قبل التاريخ «زمن الأحلام»، عندما كانت الكائنات الميثولوجية تجول في البلد، تتقاول وتصيد وتصنع العالم الطبيعي. حتى اليوم، تبقى بعض الشعائر سرّاً لا يعرفه الأغيار، ليستمر التماسك والارتباط في القبيلة. نعلم أن احتفالات هذه القبائل طويلة، وفيها غناء لمياث زمن الأحلام، وتأمل في أشياء مقدسة، وتعليم للمياث. تشمل الشعائر رقصًا وتقليدًا لأفعال الحيوانات الطوطمية، وتصفيقًا وضربيًا للعصي أو الصخور، وفي بعض أجزاء أستراليا، تشمل الشعائر العزف على الديدجيري. و

الشاعرة وسيلةً للبقاء

حلّت الشعائر الدينية لدى أسلافنا عدة مشكلات في وقت واحد. استطاعت الجماعة أن تعاقب المخطئين، وتحل الخلافات، وتعرف المتطفلين، وتقرر الإقطاعات، وفتح صفحة جديدة، وإنشاء منطقة يمكن فيها استقبال إشارات مكلفة وصادقة وصعبة التزييف، كما يمكن فحص هذه الإشارات. قد تكون الشعائر حل مشكلة بقاء بسيطة جدًا بمجرد إبعادها للحيوانات المفترسة.

الراجح أن هذه الأديان المبكرة لم يكن فيها كهنة أو تراتبية كنسية. قد يكون بعض الذكور المتفوقيين أو الشيوخ أنشأ لنفسه مناصب قيادية، أدت بعد

ذلك إلى الشamanية، ولكن رسول العالم الخفي، «الكهنة» المستقلين الذين يشابهون رجال الدين في عصرنا هذا، لم يكونوا موجودين على الأرجح.

كما لاحظ نيكولاس ويد في كتابه غريرة الإيمان، تولد الشعائر شعوراً شديداً من الاجتماع والرهبة، ورغبة في وضع مصالح الجماعة فوق المصلحة الشخصية، «تعقد الشعائر عقدة ذكية». خسر في الشعائر إحساسنا بالنفس ونتصل اتصالاً شديداً بمن نلمسهم ومن نرقص معهم ونغنّي طول الليل.

تدعم السجلات الأثرية والأنثروبولوجية أن أسلافنا الصيادين الجماعيين كانوا يحافظون على هذه الشعائر أينما هاجروا. وبقيت شعائرهم المحمولة المستمرة متركزة على الغناء والرقص والغشية.

نشأت المجتمعات المستقرة قبل 15 ألف سنة، وقبل 10 آلاف سنة كان اختراع الزراعة. ومع قلة الصيادين الجماعيين اليوم أو انعدامهم، فإن الدين الذي أنشأوه كان أقوى من أن يُرفض، فكما تأقلمنا، تأقلم الدين.

لقد أصبحت البشرية زراعية في طبيعتها. واتخذ الدين شكل الفصول، المهم جدًا في الزراعة، ولم نزل نرى هذا الأثر إلى اليوم. أنشأ الوثنية والقائلون بوحدة الوجود عيد أوسترا، وهو عيد الربيع. في اليهودية، يأتي عيد السكوت (أو العرش)، في نهاية موسم الحصاد. الفصح هو بداية موسم الشعير. عيد الأسبوع هو نهاية حصاد القمح. تبنت المسيحية هذه الشعائر في الفصح وغيره من الأعياد.

مع نشوء المجتمعات القارئة قبل نحو 5 آلاف عام، لم يعد الوصول إلى عالم الأرواح أمراً ديمقراطياً. وضعت طبقات الكهنة، بعد أن تحالفت مع القوى السياسية، قيوداً على هذا الأمر. وأدرك الكهنة والشامانات أن في يدهم قوة لا مسؤولية فيها –إذ يستطيعون إلقاء اللوم على آلهة موجودة أصلاً، يدعون أنهم مجرد رسل لها.

كانت الشعائر المبكرة من الغناء والرقص والغشية مسوّيات مجتمعية، تجمع أفراد المجتمع وتمحو ما بينهم من اختلافات. أدى الانتقال إلى المجتمعات المستقرة والحضارة إلى نشوء طبقات اجتماعية. في بعض الأديان، رُفض الرقص تماماً، بكل آثاره المنشئة للمساواة الاجتماعية–ولكن حفظ على الحركات الإيقاعية. لا تنظر أبعد من الصلوات الجماعية في الإسلام، حيث ترى جماعات من الرجال المصطفين، يركعون ويسبدون معًا، في نوع من الرقص. أو اذهب إلى قداس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وانظر إلى الركوع أمام المذبح، والانتقال بين الركوع والقعود والوقوف في القداس، وتأمل دور الترنم الغريgori في الطقوس اللاتينية للكنيسة منذ ستينيات القرن العشرين. انظر إلى قوة موسيقا الإنجيل في كنائس الأفارقة الأميركيتين التقليدية، التي لها جذور في الرقصات والشعائر الإفريقية.

في الأديان الأخرى، نرى قوة الشعائر لأنها مخوفة في قلوب تابعيها. يمتنع بعض المعمدانيين الجنوبيين عن الجماع واقفين لئلا يظن الله أنهم يرقصون. لم تكن مقاعد الكنائس مقاعد في أول أمرها، بل أصبحت كذلك بعد

حين. كانت هذه المقادير في الكنائس الأوروبية حواجز لمنع الرقص. لم تزل تمنع الرقص ولكنها كثيراً ما تعجز عن منع العباد في التجمعات التي تميل إلى العاطفية.

عند أسلافنا، كان الرقص والغناء والموسيقا كلها شيئاً واحداً.

لم تزل أصول الموسيقا موضع نقاش. هل هي عرض جانبي لآليات أخرى، أم حروف ومدود وضعت لتتوافق خفقان القلب؟ أو هل الموسيقا تأقلم قائم بنفسه؟ رأى داروين أن الموسيقا واحدة من أفضل أمثلة الاصطفاء الجنسي.

«استنتج أن أسلاف الإنسان من الذكور أو الإناث تعلموا النوتات الموسيقية والإيقاعات لتسليمة الجنس الآخر وجذبه. أصبحت النغمات الموسيقية مرتبطة بعد ذلك بأقوى المشاعر التي يستطيع الحيوان أن يشعر بها». لاحظ داروين أن كثيراً من المشاعر التي تثيرها الموسيقا مرتبطة بالحب.

الاحتراز

لا بد أنك رأيت رياضياً كاثوليكياً يخطو على خط السباق ويصلب نفسه. إنها مناشدة لإله وتخفيف للقلق. يقوم نجم كرة السلة ليبرون جيمس، بشعرة قبل كل مباراة. يصب مسحوق الطلاق على يديه، ثم يصفق بهما، وينتشر المسحوق في كل مكان، ثم يرمي ما تبقى في الهواء، باتجاه الجماهير المشجعة، وهو تعزيز للطمأنينة وتقليل للقلق. هذه الأفعال التكرارية القهرية تهدئ الخوف.

كان سigmوند فرويد يرى أن الدين هو اضطراب الوسواس القهري المجتمعي، وأن اضطراب الوسواس القهري الفردي هو الدين الخاص بصاحبته.

رأى فرويد الرابط ولكنه لم يكن مالكا للأدوات الازمة لفهمه فهماً كاملاً. نعرف اليوم أن في الدماغ أنظمة يقظة احترازية يمكن أن تثيرها الأفعال التكرارية والنمطية لتخفف القلق. تستعمل هذه الآليات نفسها في الشعائر الدينية لتخفف القلق الناشئ من الخطر أو الخوف، وكلاهما جوهرى في الحياة، ولكنهما أشد في العالم القاسي الخطر الذي عاش فيه أسلافنا.

التزامن والوحدة

تستعمل الشعائر الدينية عصبونات المرأة في أدمنتنا، التي سنتناقشها في الفصل التاسع. الهدف الأصلي من هذه العصبونات كان على الراجح المساعدة على إنشاء تنظيم للتعليم وإنشاء حركات جديدة. تستغل الشعائر الدينية هذا الأمر. يصعب ألا يرقص المرء إذا كان كل الذين حوله يرقصون، وعصبونات المرأة تسهل الرقص بالتزامن. أظهر بحث في كلية الأعمال في ستانفورد أن مجرد الانخراط في نشاط متزامن، حتى من دون الاستعمال الكبير للعضلات، يقوي التعاون والمشاعر المرتبطة به. يختلف شعورك بالمجموعة عندما يكون مسيّكم معًا خطوة بخطوة، أو عندما تتحركون معًا حركة واحدة كلّكم.

إذا أدخلت النشاط العضلي الثقيل، وصل الأمر إلى مستوى جديد. إذا شملت الحركة المتزامنة نشاطاً عضلياً ثقيلاً، ترتفع عتبات الألم. قارنت تجربة جديدة في جامعة أوكسفورد بين مجذفين يعملون معًا ومجذفين يعملون منفردين على آلات التجديف. عندما ثبت مقدار العمل في التجربة، اتضح أن الفرد الذي يعمل مع مجموعة تكون عنده عتبة الألم أعلى منها عند الفرد الذي

يعمل وحيداً، وإن تساوى مقدارا العمل. ترتفع الإندورفينات في الأنشطة الجماعية، ونحن نعرف أن الإندورفينات تعزز الروابط الاجتماعية.

تذكر معرض وودستوك، وهو لحظة محورية لجيل كامل، لا يقتصر على الذين شهدوه. كان هذا الحدث جديرا باللحظة لأنه كان خالياً من العنف والنزاع، ولاجتمع جماهير من أناس فيه، متحدين في ظروف صعبة، يعملون معًا، ويحتفلون بالشباب رقصًا وغناءً وجماعاً وصداقةً وتناولاً للمواد المغيرة للعقل، وهي مجرد متممات لكيميات الدماغ تثير التزامنية وتضفي على الجو طابعاً خاصاً.

سحر اللمس

تقضي الرئيسيات وقتاً كبيراً في التزيين، على الراجح لأسباب لا تقتصر على الصحة وإزالة الطفيليات. تدل الأدلة على أن اللمس يثير الأكسيتوسين الذي يحرض الترابط الاجتماعي، ثم يثير الإندورفين ليعزز هذا الترابط.

إذا عرضت لامرأة سيناريو تهديد وهي لا تمسك بيد أحد، تضيء لوزة دماغها التي تحكم في الخوف. تخاف المرأة. أما إذا كانت ممسكة بيد غريب، فيكون الخوف أقل. وأما إذا كانت ممسكة بيد زوجها، فيكون الخوف أقل من الحالتين السابقتين. البارز هنا هو أن الدرجة التي يقل بها الخوف عند الإمساك بيد الشريك متناسبة طرداً مع تقييمها لجودة العلاقة. العلاقة الجيدة تخفف الخوف أكثر من غيرها.

باللمس، تسترخي المناطق الجبهية في دماغنا التي تنظم المشاعر، وتتيح لنا أن نركز على حل المشكلة. يفهم الدماغ اللمس الداعم على أنه إشارة أن شخصاً آخر سيشارك في الحمل. البشر هم أكثر أنواع الرئيسيات تعاوناً، واللمس يساعد على بناء علاقات حل المشاكل هذه في أدمغة حلفائنا من الأصدقاء وغيرهم.

تظهر دراسة أخرى أن فرق كرة السلة التي يتلامس أفرادها تلعب أفضل لعب. إن صفقات الأيدي والصدور وصفعات المؤخرات هذه التي تجري بعد الرميات الموفقة أو بين الرميات الخفقة تترجم إلى تعزيزات في النواقل العصبية التي تعزز المشاعر التعاونية والتماسك في الجماعة.

حالما تعلم أسلافنا، وإن كان بلا قصد، إنشاء الكيمياء التي تزيد الثقة والحب والتعاون والإيثار، قطعوا خط الرجعة. وكان لا بد أن تشحذ هذه الاستجابات الكيميائية القوية الآليات الإدراكية التي تتيح الإيمان بكتائب فوق الطبيعة، ومن هنا انطلق الدين.

تجربة صغيرة

خذ دقيقة من وقتك، وفك في شخص يعجبك أو تحبه، وفك في المشاعر التي تكنها لهذا الشخص. الآن قدر حالتك الشعورية في هذه اللحظة، ثم اقرص يدك حتى تؤمل.

إذا فعلت هذا، فقم وغنّ أغنية وارقص على إيقاع صوتك. إذا كان معك أحد، اجعل ذراعيك على كتفيه وليجعل ذراعيه على كتفيك، وارقصا معاً وأنتما تغتّيان. عندما تنتهي الرقصة، وبعد زوال أي شعور غريب، أعد ما فعلته في

الأول. انظر أين أصبحت عتبة الألم عندما تقرص يدك؟ وكيف تشعر تجاه من راقصك؟ وكيف تشعر تجاه نفسك؟ (لك أن تتجاهل نظرة جارك الذي شاهدك وأنت تفعل كل هذا).

عندما أقوم بهذه التجربة مع جمهور، يشير الجميع تقريباً إلى تغييرات إيجابية في عدة عناصر. (تخيل جماهير ملحدة تغنى أربعة مقاطع من «النعمة الرائعة»). في هذا التدريب القصير، ستذوق التغييرات في النواقل الحيوية، التي يثيرها الغناء واللمس والحركة الإيقاعية. وهذا بعد عدة لحظات فقط. تخيل أنك تفعل هذا كل الليل في سهول السافانا في إفريقيا أو في أستراليا.

إذا كنت قد ذهبت إلى حفلة روك، حيث يقف الجمهور ويترافقون ويفغون معًا، ويمسكون بالأضواء، أو الهاتف المحمولة حديثًا، ويتركون الحفلة مبهجين ومنتعشين، فقد شعرت بقوة الشعيرة واللمس.

الشعيرة معرض لـ«أهلية التزاوج» وهذا الأمر متعلق بعنصرتين آخرين في إنسانيتنا يستعملهما الدين.

الحب الرومسي

خدم علاقاتنا الرومنسية تأقلمات محددة في أدمنتنا. يبدأ الأمر بالرغبة الجنسية، ويحل الحب الرومسي مشكلة الالتزام الشديد بشخص واحد. يستغل الدين هذا الأمر وينشئ علاقة حب. يظهر هذا مثلاً في وعد الشهداء المسلمين، أنهم سيتزوجون في الجنة. قال الشيخ ياسين، القائد الروحي لحركة حماس، أنه لا بأس أن يفجر النساء أنفسهن في العمليات الانتحارية، لا سيما إذا لم يكن

لهن زوج، ذلك أنهن «سيصبحن أجمل من الحوريات الاثنين وسبعين... وسيكون لهن أزواج مطهرون في الجنة». إن الوعد بالحوريات الاثنين والسبعين للمستشهادين في العمليات الانتحارية، على الراجح أقرب إلى الشهوانية منه إلى الرومنسية، واستغلال لشهوة الذكور الجنسية التي تركز على النساء الخصبات الشابات.

إن الدين يستعمل القدرة على الحب الرومنسي استعملاً موسعاً. تأمل في رسائل الأم تيريزا التي نُشرت مؤخراً، التي تقول فيها إنها تزوجت المسيح. في الحقيقة، كانت مراسيم الراهبات في القرون الوسطى زفافاتٍ في جوهرها -وفيها عطاء للكنيسة (مثل جهاز العروس). حتى اليوم، تتسمّي بعض منظمات الراهبات «عرائس المسيح»، وتلقي الراهبات نذورها الأخيرة في ثياب زفاف، وتتلقى وتلبس محابسها.

في عرض جميل تظهر فيه امرأة، اسمه التخلّي عن الله، تقول الكوميدية جوليا سويني إنها كانت تستعمل لوحة للمسيح في شبابها لتطلاق شهواتها الجنسية.

إن نظام التعليق، المناقش في الفصل الثالث، يسهم إسهاماً عميقاً في العلاقات الرومنسية. ننتقل فيه من الشهوة إلى الإعجاب الرومنسي الشديد ثم إلى الحب والشغف، وتقوم هذه المرحلة الأخيرة على نظام التعليق.

الاستثمار الأبوي

إن الفروق الأساسية في السلوك بين الجنسين ليست قائمة على الجنس الجيني فقط. بل يحددها ما يسمى الاستثمار الأبوى، الذى يعكس أي جنس له الحصة الفيزيولوجية الأكبر في الذرية، ويكون من ثم صاحب أكبر استثمار عاطفى.

في معظم الأنواع الجنسية، يكون للأنثى الاستثمار الأبوى الأكبر. في جنسنا مثلاً، يكون على المرأة أن تنتج بويضة غنية بالمعذيات، يجهز لها الرحم كل شهر -حتى إن لم يحدث حمل- في الحياة التكاثرية، وعليها أن تحمل الجنين تسعة شعور، وتلد -والولادة عملية قد تكون قاتلة-، وترضع شهوراً أو سنين. إن التكلفة الفيزيولوجية ضخمة. أما الذكر، فالتكلفة عنده هي نطفة وخمس دقائق.

هذا اختلاف كبير في الاستثمار الأبوى على المستوى الفيزيولوجي فقط. بعد ولادة الطفل، حتى في الثقافات الغربية «التقدمية»، تقع مسؤولية الرعاية الجسمية والعاطفية الكبرى على المرأة. قد يغير الآباء حفاظات الطفل بين الفينة والأخرى، ولكنه على الراجح اختصاص الأم.

سلوكيّاً، الجنس الذي يكون استثماره أكبر، يكون أكثر انتقائية لمن يزاوج. هذا الجنس هو الذي يحدد معدل التكاثر. أما الجنس الذي استثماره الأبوى أقل، وهو الذكر عادة، فعليه أن ينافس بقية أعضاء جنسه منافسة حادة ليصل إلى المرأة ويضمن مرور حمضه النووي.

في البشر، يبدو أن هذه الأهمية والانتقائية البيولوجية للأنثى كانت مهينة للرجال، الذين لم يزالوا يبتكرن طرقاً للتحكم بتكاثر الإناث. تشمل الحيل أشياء

كثيرة منها تعدد الزوجات والتأكيد على ضرورة ارتداء النساء لغطاء أسود من الرأس إلى القدم، وقد تشمل ممارسات وحشية مثل استئصال البظر والختان. في بعض الحروب الأهلية، التي قد تكون بسبب الدين أو الطائفة، يظهر الرجل انتصارهم على أعدائهم بأن يغتصبوا زوجاتهم وهم ينظرون بلا حول ولا قوة. يعتبر هذا الأمر إهانة للرجال أكثر من «نسائهم»، وإن كان العار قد يلحق المرأة أيضاً طول عمرها، حتى بين قومها. هذا العار نفسه قد يلزم أي ذرية من هذا الاغتصاب.

ويبدو أن الاعتقاد الديني عنصر مهم في ثقافتنا التي تقوم فيها العلاقات على الزواج الواحدي وترك التعدد، التي تؤدي بذاتها إلى مزيد من التنافس بين أعضاء كل جنس ليحصلوا على زوج مناسب. تأمل في مراسم الزواج المسيحي التقليدي: «ما جمعه الله، فلا يفرّقه إنسان».

أظهرت دراسة في جامعة أريزونا جرت عام 2009 أن الرجال والنساء تزداد مشاعرهم الدينية عندما تُعرض لهم صور لأفراد جذابين من جنسهم نفسه-لا من الجنس الآخر، كما قد تظن. لذا، عندما يدخل التنافس بين الشركاء المحتملين، يدخل الدين أيضاً.

معظم الأديان مهووسة بالجنس، وهذا في نفسه دليل على أن الدين من صنع الإنسان.

إلى الآن، ناقشنا لبناء النهاية الأساسية للإيمان والشعائر—وكيف أنهم عرض جانبي لآليات إدراك تطورية. ولكننا نملك الآن أدلة من دراسات صوّرت أدمغتنا. فلننظر الآن إلى ما نراه في هذه النافذة إلى العقل.

الفصل التاسع

يا قليلي الإيمان

اكتشاف الدليل المادي على الآلهة بوصفها ناتجاً ثانوياً

ما أهم المستقبل بالنسبة لحاضر عندما يكون المرء محاطاً بالأطفال.

- تشارلز داروين

تبعدو كلمة ناتج ثانوي تافهة، وكأنها تعني الضعف، أو عدم الأهمية. لكن العكس هو الصحيح. فالقراءة والكتابة، مثلاً، هما ناتجان ثانويان ثقافيان لتكيفات مصممة أصلاً لغايات أخرى. نحن لا نملك وحدات قراءة وكتابة في دماغنا. ما نملكه هو الرؤية، واللغة المنطقية، والفكر الرمزي، والانتقال الحركي الدقيق لأيديينا، إلى جانب العديد من التكيفات الأخرى المصممة أصلاً لغايات مختلفة. لقد اجتمعت كل هذه التكيفات معًا عندما ابتكر البشر الكتابة والقراءة، أهم الاختراعات الثقافية لجنسنا البشري.

وبالمثل، يحتمل أن تكون الموسيقى ناتجاً ثانوياً للغة المنطقية، بحروفها المتحركة والساكنة، الموضوعة على إيقاع، هو إيقاع القلب النابض في الأصل. ولتقدير قدرة الناتج الثانوي الثقافي على تحريكنا، ما عليك سوى الاستماع إلى مقطوعة موسيقية مفضلة، خاصةً تلك التي تستحضر الذكريات.

إن الدين قوة جبارة قد شكلت التاريخ والسلوك الفردي لحد لا يقاس. ووصفه بأنه ناتج ثانوي لا يقلل من قوته الواضحة، لاسيما عندما تؤيد دراسات

الحديثة مرموقة ذلك. إذ توجد الآن أدلة تجريبية قوية وكاشفة حديثة لتفسير السلطة الخارقة للدين علينا.

كما تقول لون فرانك، عالمة الأعصاب والصحفية الدنماركية، «إن المقدس موجود بين الأذنين». وهذا بالضبط ما تم اكتشافه، بفضل التقنيات الجديدة لعلم الأعصاب والتصوير.

يحتمل أن مايكل بيرسنغر، عالم نفس في جامعة لورنتيان في كندا، هو الأشهر في مجال أبحاث الدماغ والدين الجديد هذا. لقد أجرى بيرسنغر منذ ثمانينيات القرن الماضي تجارب تستخدم ما يُعرف الآن بـ«خوذة الإله». يوضع فيها الأشخاص في غرفة مظلمة وهادئة، وتحجب الرؤية والإدراك الصوتي عنهم، وتوضع على رؤوسهم خوذة تحفز الفص الصدغي مغناطيسيًا.

يبلغ الخاضعون للاختبار عن وجود كيان «آخر». ويمكن أن يفسر مرتدى الخوذة «الحضور المحسوس»، اعتماداً على تاريخه الشخصي والثقافي، على أنه شخصية دينية خارقة للطبيعة. وقد أبلغت النساء عن ذلك بمعدل أكبر من الرجال.

يزعم بيرسنغر أننا لا نملك إحساساً واحداً ثابتاً بالذات ولا ينبعث من جزء واحد من الدماغ. بل تساهم عدة مناطق من الدماغ في تجربتنا الوعائية لأنفسنا. ففي حالة اليقظة المعتادة، يهيمن الجانب الأيسر من دماغنا الذي يتحكم في اللغة. وفي أوضاع أخرى، كتلك المتسمة، بالخوف، أو الاكتئاب، أو الأزمات الشخصية، أو قلة الأكسجين، أو انخفاض سكر الدم أو ارتداء «خوذة الله»، عند

تحفيز الباحة الصدغية اليمنى، يتوجّل هذا الإحساس الإضافي بالذات في الوعي ويسُتشرّب كأنه كيان «آخر».

إن هذا التحفيز للتجارب الدينية عبر الفص الصدغي ليس مجرد شذوذ أكاديمي أو أثر للمغناط داخل المختبر. فالفص الصدغي بالغ الأهمية للكلام، والعنصر المشترك في التجارب الدينية هو سماع صوت إله. يمكن أن يخطئ المرء في نسب صوته الداخلي إلى صوت آخر خارجي. وقد وثق أن العديد من الأشخاص المصابين بصرع الفص الصدغي، الناتج عن الاضطرابات الكهربائية في هذه المنطقة، مرّوا بتجارب دينية مكثفة، وأن التدين الشديد كان سمة شخصية مشتركة بين هؤلاء المرضى.

يُحتمل أن يكون القديس بولس كان يعاني في الواقع من نوبة صرع عندما «وقع مغشياً» في طريقه إلى دمشق، ويُحتمل أيضًا -بل يرجح- تقييم إصابة بعض مؤسسي وزعماء الأديان المختلفة في العالم اليوم بصرع الفص الصدغي ومعالجتهم منه. ويُعتقد أن القديسة تيريزا من أفيلا، وفيودور دوستويفسكي، ومارسيل بروست، من بين آخرين، قد عانوا من صرع الفص الصدغي، الذي يُحتمل أنه ساهم في تركيزهم على الجانب الروحي.

أندرو نيوبيرغ، هو دكتور في الطب وأخصائي في الطب الباطني والأشعة في مستشفى جامعة توماس جيفرسون وكلية طب فيها وأستاذ مساعد في قسم الدراسات الدينية في جامعة بنسلفانيا، وقد كان رائداً في دراسات التصوير العصبي لراهبات يصلين، ورهبان يتأملون، وخمسينيون متكلمون بالألسنة

وأفراد في حالات نشوة مختلفة. يقترح عمله أن الحالات العاطفية التي «يشعر فيها الفرد بالاتحاد مع الكون» تتوافق مع نشاط عالي في الفص الجبهي ونشاط منخفض في الفص الجداري الأيسر للدماغ، وهو منطقة مسؤولة عن تكامل المعلومات التي توجهنا في بيئتنا. إذ تخبرنا تلك المنطقة أين تنتهي أجسادنا ويببدأ العالم.

إن حجب المدخلات الحسية عن تلك المنطقة من الدماغ عن طريق الصلاة المكثفة، أو التأمل، أو التراتيل البطيئة، أو الألحان الرثائية، أو الرقيات الطقوسية الهمسية أو غيرها من التقنيات، فقد يمنع الدماغ من التمييز بين الذات وغير الذات، والعالم الداخلي والخارجي. وعندما لا تكامل هذه المنطقة مثل هذه المعلومات من العالم الخارجي، سيشعر الفرد بالاندماج في كل شيء.

ومن المعترض أن هذه الدراسات تتضمن استثناءات - خاضعون لاختبار الخوذة، وراهبات، ومصابون بالصرع، وصوفيون، وخمسينيون وغيرهم من المتطرفين. فمثلاً، عندما يتحدث الخمسينيون والمسيحيون الكاريزماتيون بأسنة، يحدث العكس. ينخفض نشاط الفص الجبهي، الذي يقابل الشعور بفقدان السيطرة، ويرتفع نشاط الفص الجداري، الذي يقابل اختبار مكتف للذات فيما يتعلق بالإله، شخصية الارتباط.

أما بالنسبة إلى استقصاءات التصوير العصبي الحديثة على المزيد من الأشخاص العاديين المتدينين وغير المتدينين، تعطينا دراسة «الأسس الإدراكية والعصبية للاعتقاد الديني»، التي نشرها ديميتريوس كابوجيانيس وخمسة

باحثين آخرين في ربيع عام 2009 من المعاهد الوطنية للصحة، أدلة مذهلة تدعم نظرية الدين كناتج ثانوي.

جرت مراقبة أدمغة الخاضعين للاختبار باستخدام التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي (إف إم آر آي). وبينماقرأ لهم الباحثون عبارات مختلفة حول الدين، طلب منهم الموافقة أو المعارضة. رغم عدم وجود «مركز إله» داخل الدماغ، لكن حددت أدلة التصوير العصبي وجود الاعتقاد الديني داخل نفس الشبكات الدماغية التي تعالج القدرات لنظرية العقل والنية والعاطفة.

كشفت مقارنة نتائج المشاركين في الاختبار من المتدینين وغير المتدینين عن عدم وجود فروق في آليات الدماغ المستخدمة لتقدير تلك العبارات. فالتدين ليس وظيفة منفصلة. بل يدمج في نفس شبكات الدماغ المستخدمة في الإدراك الاجتماعي. والاعتقاد الديني ليس ذات طبيعة خاصة - ليس فريداً. تقدم الدراسة دليلاً قوياً على أن الاعتقادات الدينية توظف دوائر دماغية وآليات ذهنية اجتماعية وعادية معروفة جيداً، وأن هذه الآليات تتوسط في الوظائف التكيفية الموضحة هنا.

استخدمت دراسة حديثة أخرى أجراها سام هاريس التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي أيضاً، واختبرت كلّاً من المؤمنين المتدینين وغير المؤمنين قدمت لهم مقتراحات دينية وغير دينية. أظهرت أدمغة المؤمنين نشاطاً في أجزاء تتعلق بالهوية وكيفية رؤية وتمثيل الفرد لذاته، بصرف النظر عن المحتوى المعروض عليهم.

خلايا عصبية مرآتية

اكتشفت «الخلايا العصبية المرآتية»، الموجودة في أدمغتنا كلنا، ربما في العديد من المناطق المختلفة، عن طريق الصدفة بواسطة باحثين يعملون على قرود الماك في جامعة بارما في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين. أظهرت الأبحاث اللاحقة أنها نشطة عند البشر أيضاً. إن اكتشافهم هذا من أهم النتائج الحديثة في علم الأعصاب. تحفز هذه الخلايا العصبية عندما يؤدي حيوان فعلًا ما وعندما يلاحظ حيوان آخر يؤدي نفس الفعل. فهذه الخلايا العصبية «تعكس» سلوك الآخر، كما لو كان المراقب يؤدي نفس الفعل. لذلك يصح حقاً أن «القرد يرى، القرد يفعل».

دعونا نوضح هذا. عندما ترفع يدك اليمنى، تنشط الخلايا العصبية في الجانب الأيسر من دماغك، في المنطقة المتحكمة في حركة الذراع اليمنى. وإذا شاهدتني أفعل ذلك، ستضيء نفس الخلايا العصبية، رغم أن ذراعك اليمنى ما تزال ساكنة. إذا غرست سكيناً في يدي اليمنى، تتنشط مناطق إدراك الألم في دماغي الأيسر. وإذا رأيتني أفعل ذلك، يتفاعل دماغك بنفس الطريقة.

لكن لا يجب أن تتأنم لتثبت ذلك لنفسك. إذا شاهدت شخصاً يمسح شريحة الليمون، فسوف «تتدوّق» الليمون اللاذع وسيسيل لعابك، تماماً كما لو كنت تأكل الليمون بنفسك. أو حاول ألا تبتئب عندما يتثاءب أمامك شخص آخر.

يفهم جامعو التبرعات هذا على مستوى ما. إذ يمكنهم سرد جميع الإحصائيات عن جوع الأطفال في العالم دون أن يؤثروا كثيراً على الشخص

العادي، لكن إذا عرضوا على هذا الشخص صورة طفل جائع، سيكون أكثر ميلاً للتبرع. لقد أطلق زلزال هايتي في عام 2010 تدفقاً هائلاً من المساعدات من جميع أنحاء العالم بسبب الصور والقصص المروعة التي انتشرت عبر وسائل الإعلام. يمكن أن نشعر جميعاً بألم الخسارة واليأس، ولن تسمح لنا أوتار قلباً بالجلوس وعدم القيام بشيء حيال ذلك.

كثيراً ما نسمع أنه لو لا الدين لكان غير أخلاقيين وغير مبدئيين. تدحض الخلايا العصبية المرآتية هذا بشكل مدوٍ. فنحن نشعر حرفيًا بألم الآخرين، وهذا يدفعنا إلى التعاطف والشعور بالضيق والرغبة في المساعدة. فأدمغتنا أخلاقية بحكم تصميمها. تستخدم الأديان هذا، وتستخدمه، بوعي أو دونوعي، بطريقة قد تكون صادمة.

كم من الأطفال تعرضوا لصورة الصليب المؤلمة؟ قد يعتقد معظم المسيحيين أنهم اعتادوا على ذلك، لكن تشير الأدلة إلى أنهم في كل مرة يشاهدونها، يشعرون بألم، في مستوى معين، كما لو أنهم يسمرون على الصليب. تعد هذه الصورة متلاعب قوي للغاية في قدراتنا الأخلاقية الأساسية.

استفاد ميل غيبسون، الممثل والمخرج الرومي الكاثوليكي الشهير «التقليدي»، استفادة كاملة من هذه النزعة في فيلمه آلام المسيح الصادر عام 2004، الذي اتسم بالعنف الجرافيكي لدرجة أن بعض المسيحيين شجعوا بسببه. اتهم غيبسون بمعاداة السامية وإطالة أمد العنف في الفيلم لغرض صريح تمثل في تقوية الاعتقاد الديني. أنتج عن الفيلم فيلمين وثائقين وما

يزال له موقع ويب نشط يتيح الفيلم -مع مشاهد عنف إضافية من الإصدار المسرحي للفيلم- كأدوات تعليمية للكنائس.

يقال إن بعض المتدينين المتحمسين قد أظهروا، على مدى حياتهم المسيحية، الستيغماتا جسدياً - المظهر الغامض على أيديهم وأقدامهم وجوانبهم المائل لجروح صلب المسيح. يصنف هؤلاء عموماً على أنهم قديسين، ولكن يرجح أن عقلهم الباطني قد أدرك تلك الصورة بقوة وصمة شديدة تان لدرجة أنها ظهرت على أجسادهم. إن هذا النوع من القوة الذهنية ليس مجهولاً للعلم. ويحتمل أيضاً أنهم جروحوا أنفسهم في أثناء وجودهم في حالة تشبه الغيبوبة، عن قصد أو عن غير قصد.

وبينما تقرأ هذا الكلام، يواصل باحثون متخصصون في العمل تسخير علم الأعصاب الحديث لاستكشاف كيف تولد أدمنتنا الاعتقادات الدينية وتقبلها وتنشرها. سيعتمدون على العمل الموصوف للتو، وسيقدمون لنا يوماً ما تشيريحاً عصبياً شاملأً للاعتقاد الديني في الدماغ. راهن على ذلك.

الفصل العاشر

لئلاً تدانوا

تعليم أدمغتنا

نفي أكثر الأحيان يولد الجهل الثقة أكثر مما تفعل المعرفة، فهؤلاء الذين لا يعرفون سوى القليل، وليس أولئك الذين يعرفون الكثير، هم من يجزمون أن هذه المشكلة أو تلك لن يحلها العلم أبداً

– تشارلز داروين

في عام 1918، بدأ وليام جينينغز برايان، وزير الخارجية السابق والمرشح الرئاسي، ما أسماه دودلي مالون «صراع مع التطور حتى الموت». بلغت المعركة ذروتها في صيف عام 1925 بمحاكمة سكوبس الشهيرة في دايتون بولاية تينيسي. لكن لم يكن التطور الطرف الخاسر فيها. دعا كلارنس دارو، محامي الدفاع الرئيسي، بريان إلى المنصة باعتباره شاهداً معايِّراً، ثم هدم معتقدات بريان الحرفية الإنجيلية الحمقاء معتقد تلو الآخر. تصنف هذه المحاكمة كإحدى أعظم الاستجوابات المقابلة في تاريخ القانون الأمريكي. ولا بد أن برايان عرف أنه قد تعرض للإهانة؛ إذ توفي بعد خمسة أيام.

رغم أن جون سكوبس، الذي كان يدرس التطور في مدرسة ثانوية، قد أدين بانتهاك قانون بتلر في ولاية تينيسي، والذي يمنع صراحةً تدريس التطور، فإن الإدانة ألغيت لاحقاً ولم يعاد فتح القضية مجدداً. لذا، رغم فوز برايان عملياً في عراك المحكمة، لكنه خسر المعركة حتماً.

غير أن الحرب الأوسع لم تنته. وظل قانون بتلر ساري المفعول لما يقرب من الأربعين عاماً، وظلت القضايا القانونية المحيطة بتدريس التطور معلقة إلى أن طعن مدرس آخر في القانون على أساس التعديل الأول في الدستور لعام 1967.

منذ منتصف السبعينيات، كان هناك تسعه عشر تحدياً رئيسياً أمام تدريس التطور، اثنان أمام المحكمة العليا للولايات المتحدة. فقد حاول الكثير من اليمينيين الدينيين عرقلة تدريس التطور بالإصرار على تدريس علم الخلق ونسخة الأحدث، التصميم الذكي، إلى جانب التطور الدارويني. ولكن في كل مرة تصل القضية إلى نقطة حاسمة في نظامنا القانوني، ينتصر العلم.

ومؤخراً في أواخر عام 2005، حكم القاضي جون إ. جونز الثالث، قاضي محكمة مقاطعة بنسلفانيا الاتحادية، ضد طلب تقديم التصميم الذكي كبديل من التطور الدارويني في حصص العلوم للصف التاسع. وفي قضية كيتسميلر ضد مدارس منطقة دوفر، أدلى كينيث ميلر، عالم أحياe في جامعة براون وكاثوليكي متدين، بشهادته مؤيداً النزاهة العلمية للتطور، مشيراً إلى عدم وجود تعارض بين الدين والعلم. وردت كلماته الخطاب الأكثر شهرة في محكمة سكوبس، وهو خطاب «الحرية الأكاديمية»، لمحامي كلارنس دارو المساعد، دودلي مالون، الذي أشار إلى عدم وجود تعارض بين علم التطور والدين. ورغم أن قضية دوفر مثلت انتصاراً عظيماً للعلم ولتدريس العلم، فإن القاضي جونز، في قرار مثالى

مخالف، متوافق مع وجهة نظر ميلر ومالون، أشار صراحةً إلى هذا الغياب المفترض للتعارض بين العلم والدين.

رغم الصواب السياسي في إعلان عدم وجود تعارض بين العلم والدين، فإن ضجة المعارك المستمرة في مجالس المدارس واللجان التعليمية في جميع أنحاء الولايات المتحدة (ومؤخرًا، في المملكة المتحدة وكندا) أصبحت تصم الآذان. فلا شك أن هناك تعارض بين الدين والعلم.

على مدى قرون، قدمت الدوغماتية الدينية ادعاءات حول أصول الكون، وأصول الإنسان وطبيعته، وطبيعة العالم. لقد دحض العلم هذه الادعاءات والتفسيرات ببطء ولكن بشكل قاطع، ولم يخلو ذلك من المخاطر، كما سيخبرك غاليليو لو كان حيًّا. يُظهر البحث الفعلي عن الحقيقة أن الرجال والنساء في العالم المعاصر هم قروود أفريقية، وأخر الأسلاف الإنسانيون الناجون، الإنسان العاقل.

كما أشرنا في الفصل 3، حتى داروين واجه صعوبة في التخلص من الدين، ولم يكن لديه سوى جزء بسيط من الأدلة التجريبية للنظر فيها، مقارنةً بما نعرفه اليوم.

إن الآليات العقلية التي تجتمع لتجعلنا عرضةً للاعتقاد الديني متصلة بعمق. وعندما تتحد مع التلقين المجتمعي للأطفال، منذ الولادة غالباً، نواجه ما قد يكون معركة كبرى بين الإيمان المؤكد والقصي الذكي. وكما قال جيري

كَوْنِينَ، عَالَمُ أَحْيَاءٌ تَطْوِيرِيٌّ وَمُؤْمِنٌ سَابِقٌ، «إِنَّ الإِيمَانَ فِي الدِّينِ فَضْلَةٌ؛ أَمَا فِي
الْعِلْمِ رَذِيلَةً».

وَإِنَّهُ أَيْضًا، كَمَا قَدْ يَخْبُرُكَ أَيْ مُؤْمِنٌ سَابِقٌ، أَسْهَلَ كَثِيرًا لِلتَّصْدِيقِ. إِذْ تَقْدِمُ
الْأَدِيَانُ مَجْمُوعَاتٍ مِنَ الْقَوَاعِدِ وَهِيَ تَلْغِي، عَنْدَمَا تَقْتَرَنُ بِجَمِيعِ آليَاتِنَا الْعُقْلِيَّةِ
الْتَّكِيفِيَّةِ، الْحَاجَةُ إِلَى التَّفْكِيرِ الْجَادِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ. وَفِي الْحَقِيقَةِ، وَجَدَ
اسْتِطْلَاعُ بِبِيُو عَنِ الدِّينِ لِعَامِ 2010 أَنَّ الْلَّادُرِيِّينَ وَالْمَلْحُدِينَ كَانُوا أَكْثَرَ إِطْلَاعًا
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَدِيَانِ الْعَالَمِ، وَهَذَا يَبْدُو أَنَّهُ يُشَيرُ إِلَى مَسْتَوِيٍّ أَعْلَى مِنَ التَّفْكِيرِ
بِشَأنِ الْقَضَائِيَّاتِ الْمَطْرُوحَةِ.

وَلَكِنَّ يَوْجُدُ أَمْلًا. فِي مَقَابِلَةٍ مَعَ قَنَاهُ إِيَّهُ بِي سِيَّ نِيُوزُ فِي 6 يُونِيُّو 2010،
قَالَ الْفِيُزِيَّائِيُّ ستِيفِنُ هُوكِينِغُ، الَّذِي يُعْتَبَرُ كَثِيرُونَ أَحَدَ أَعْظَمِ الْعُقُولِ الْعَلْمِيَّةِ
فِي عَصْرِنَا أَوْ فِي جَمِيعِ الْعَصُورِ «هُنَاكَ فَرْقٌ جَوْهِرِيٌّ بَيْنَ الدِّينِ، وَالَّذِي يَقُومُ
عَلَى السُّلْطَةِ؛ وَالْعِلْمُ الَّذِي يَقُومُ عَلَى الْمَلَاحِظَةِ وَالْعُقْلِ. سَيَفُوزُ الْعِلْمُ لِأَنَّهُ نَاجِحٌ».
وَكَمَا يَعْلَمُ مُعْظَمُ النَّاسِ، لَوْلَا مَسَاعِدُ الْعِلْمِ، لَكَانَ هُوكِينِغُ اسْتَسِلَمَ مِنْذُ فَتَرَةٍ
طَوِيلَةٍ لِدَمَارِ التَّصْلِبِ الْجَانِبِيِّ الضَّمُورِيِّ (إِيَّهُ إِلَّا إِسْ، أَوْ «مَرْضُ لُوْ غِيرِيَّغُ»)
مَهْمَا بَلَغَ عَدْدُ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ صَلَوْا مِنْ أَجْلِهِ. بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، ظَلَّ عَقْلُهُ النَّافِعُ
سَلِيمًا وَاسْتَمَرَ فِي التَّعْلِمِ وَالتَّدْرِيسِ، بِمَسَاعِدِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ التَّجهِيزَاتِ
الْتَّكْنُولُوْجِيَّةِ.

وَكَمَا يَتَضَرَّعُ فِي هَذَا الْكِتَابِ، يَوْضِحُ لَنَا الْعِلْمُ -تَحْدِيدًا- عِلْمَ الْأَعْصَابِ
الْإِدْرَاكِيِّ وَالْإِجْتِمَاعِيِّ - كَيْفَ وَلِمَاذَا تَوَلَّتِ الْعُقُولُ الْبَشَرِيَّةُ الْاعْتِقَادَاتِ الْدِينِيَّةِ.

يوجد أكثر من مخطط واضح، ومع كل يوم يمر، تستمر الآليات النفسية، والتشريح العصبي، والكيميا العصبية للدين في جذب مزيد من الاهتمام.

لن يمر وقت طويل قبل أن يقوم جون أو جاين سكوبس آخرين بتدريس علم الأعصاب الإدراكي التطوري للدين في حصن علم الأحياء أو علم النفس في المدرسة الثانوية العامة. عندما تدرس هذه الحصن، يمكنك المراهنة على رد فعل المسيحيين الأصوليين في الولايات المتحدة. سيحضرون بها إلى المحكمة. وسينظر في القضية أخيراً في محكمة فيدرالية، وربما حتى المحكمة العليا. يجب أن نرحب جميعاً بمثل هذه المحاكمة. لأنها ستولد جمهوراً أوسع لهذه الاكتشافات حول كيفية خلق عقول البشر للمعتقدات الدينية والحفاظ عليها. وإن كان في التاريخ أية عبرة، فإن العلم -في هذه الحالة، علم الأعصاب التطوري المعرفي للاعتقاد الديني- سيفوز بشكل حاسم.

قد يوفر الدين الراحة في عالم قاسٍ؛ وقد يعزز المجتمع؛ وقد يثير الصراع. باختصار، قد يكون له استخداماته الخاصة- في الخير والشر. لكنه من صنع البشر، وسيكون عالمنا أفضل إن توقفنا عن الخلط بينه وبين الحقيقة.



A translation of “Why We Believe in God(s): A Concise Guide to the Science of Faith”
© [2011] J. Anderson Thomson, Jr.